

## القسم الرابع

### العربية الشرقية

### الفصل الثاني عشر

### حراسة الخليج العربي

اشتهر الخليج منذ القرن الثامن عشر بقراصنته القساة، وبتجار الرقيق، وبعد ذلك بلؤلته ذي الألق النادر، وهو اليوم معروف بغزارة بترولته. «فترول الشرق الأوسط» يكاد معظمه يأتي من آبار جنوب العراق وإيران، ومن الحقول المترامية الأطراف في الكويت والأحساء. وأكثر من نصف احتياطي العالم مدفون في أرض تأخذ شكل هلال سحري يغتسل في مياه الخليج، التي تشق عباها ناقلات النفط التي تأتي إلى الفاو، أوبندر شاهبور، أو ميناء الأحمدى، تبحث عن حمولتها الخطيرة. وقبل أن تصل إلى الموانئ المذكورة، تسير الناقلات المملوءة بالمياه المالحة مسافة أكثر من ١٦٠٠ كم، بموازة ساحل عمان، قبل أن تلج مضيق هرمز، عند رأس مسندم، التي هي آخر مناطق نفوذ سلطان مسقط، وفي الوقت نفسه آخر مركز حراسة ثابت في مدخل الخليج العربي .

إن سلطنة مسقط وعمان، التي تقع بين صحراء الربع الخالي وبحر العرب، تشكل الطرف المحذب لهذه الكتلة التي تشكلها الجزيرة العربية. وهي، شأنها شأن حضرموت، تتجه نحو شبه القارة الهندية بسبب الصحراء التي لا يمكن تجاوزها نحو الداخل. ولم يخطئ البريطانيون في تقدير أهميتها الاستراتيجية الكبيرة، فضموها إلى منطقة نفوذهم منذ القرن الثامن عشر الميلادي. وكان استقرارهم في مسقط

عام ١٨٠٠م نقطة الانطلاق [١٧٦] للسيطرة على المنطقة إبّان القرن التاسع عشر. واليوم، في النصف الأول من القرن العشرين، استطاعت بريطانيا بعد صراع طويل إزاحة كل القوى، وخصوصاً المنافسة الفرنسية.

مازالت بريطانيا، حتى يوم الناس هذا، بعد خروجها من الهند، والأزمة الإيرانية، وعلى الرغم من انحسار نفوذها في الشرق الأوسط، والمكانة المميزة التي حصلت عليها بسرعة الولايات المتحدة الأمريكية فيه، القوة الأساسية في المنطقة، التي يتحكم سلطان مسقط وعمّان بالدخول إليها، وقد رأينا ذلك خلال صيف عام ١٩٥٧م، عندما سارعت القوات الجوية والبرية البريطانية لمساعدة السلطان ضد تمرد القبائل العمانية في الداخل.

إنها سلطنة غريبة، لا حدود لها، مستقلة نظرياً، وقواتها المسلحة تحت قيادة الضباط البريطانيين، ووزير خارجيتها اسمه نيل أينس Neil Innes، وفيها قنصل صاحب الجلالة، الخاضع لسلطة المقيم السياسي البريطاني في الخليج. وإن اسم الدولة نفسه غامض، فهو يجمع بين اسم العاصمة، التي يسكنها ٣٠٠٠ نسمة، واسم داخل البلاد، الذي تبلغ مساحته ١٠٠ ألف كم مربع. وإن عدم وضوح حدود السلطنة بدقة، وصل حداً جعل أكثر المصادر تذكر أن مساحتها تبلغ ٢٠٠ إلى ٢٢٠ ألف كم مربع، بينما تؤكد شركة العراق بتروليوم، صاحبة امتياز التنقيب عن البترول فيها، أن مساحتها لا تقل عن ٣٥٠ ألف كم مربع. وقد كان السلطان غالباً بحاجة إلى الدعم البريطاني لفرض سلطته في جبال عمّان، التي تسكنها قبائل شديدة البأس. وإن إقليم ظفار الواقع في أقصى غرب السلطنة، قرب المهرة، التي تتبع محمية عدن الشرقية، والمدينة الرئيسية فيه صلالة، التي تعد المقر الصيفي للسلطان. ويتكون الداخل من تلال معشبة، تنمو فيها شجرة البخور نمواً طبيعياً منذ قرون لا تعيها الذاكرة البشرية. أما شبه جزيرة مسندم فإنها تقع في مدخل الخليج، وهي عبارة عن مركز متقدم، لا يتصل مباشرة مع بقية أنحاء السلطنة. وتلك أيضاً حالة

غوادر Gwadar، وهي جيب تبلغ مساحته ٨٠٠ كم مربع، يقع [١٧٧] على الطرف الآخر من خليج عمان في بلوشستان (باكستان).

إن أقسام السلطنة المختلفة تنضوي تحت لواء مسقط، وهي شريط بحري عربي تكتنفه الجروف، وأفضل ميناء طبيعي في المنطقة. وعلى بعد عدة كيلومترات إلى الشمال تقع قرية مطرح، وهي أهم مركز تجاري في السلطنة. ويقع بين هذه المدن، وبين حدود ساحل القراصنة، سهل باطنة الساحلي، الذي تنتشر فيه بساين النخيل. وهي المنطقة الوحيدة الخصبة في ساحل شديد الحرارة، ذي مناخ لا يحتمله الأوروبيون. وتشتهر مسقط و مطرح بأنهما أشد مدن الجزيرة العربية حرارة، والبريطانيون القلائل، الذين يسكنون هناك لا ينفكون يكررون المبالغات التي جاء بها زائر فارسي في القرن الخامس عشر، عندما قال: «كان الحر شديداً حتى إن النخاع يغلي داخل العظام؛ والسيف يذوب في غمده كأنه الشمع، والأحجار الكريمة التي تزين الخنجر الصغير تتحول إلى فحم. وأصبح الصيد في السهل أمراً في غاية السهولة، لأن الصحراء كانت مملوءة بالغزلان المشوية بحرارة الجو»<sup>(١)</sup>. وكميات الأمطار التي تهطل فيها قليلة جداً، لأن الجبل الأخضر العالي، يشكل حاجزاً يوقف السحاب المحمل بالأمطار ليوزع مياهها على ساكنيه. وقد رأينا في بعض الأحيان على القمم التي يبلغ ارتفاعها ٣٠٠٠ متر هطول الثلوج. وإذا اتجهنا إلى الداخل، فيما وراء السلسلة الجبلية، يبدأ العلو بالانخفاض تدريجياً، حتى يتصل في النهاية برمال الربع الخالي ذات اللون الأملغ.

قلة قليلة من الأوروبيين زاروا منطقة الجبل الأخضر، ولم يستطيع أحد أن يعرفها حق المعرفة. يبلغ عدد سكانها الذين ربما كانوا من العرب الأول، بين أربع إلى خمس مئة ألف نسمة، وهم، ومربو مواشي، وينتمون إلى

---

(١) الزائر الفارسي هو عبد الرزاق الذي زار مسقط عام ١٤٤٢م. الدباغ، ج٢، ص ١١٧-١١٨. وقد نقل النص عن كتابنا هذا (الترجم).

المذهب الإباضي، ويخضعون لسلطة إمام خاص بهم. أما التركيب الاجتماعي، فهو حتماً التنظيم القبلي، لأن الوصف الذي قدمه جيمس موريس James Morris الذي رافق سلطان مسقط في جولته عام ١٩٥٥م، يشير إلى أن عدداً من الشيوخ نزلوا من جبالهم ليعربوا عن ولائهم للسلطان<sup>(١)</sup>. والسكان في المنطقة الساحلية الضيقة على خليج عمان، خليط عجيب من الأعراق: فالعرب، والبلوش، [١٧٨] والفرس، والأفارقة، هم في المدن بأعداد تكاد تكون متساوية. أما في ظفار والباطنة فالعرب هم الأغلبية. ومجموع عدد سكان السلطنة يصل إلى ٥ أو ٦ مئة ألف نسمة.

## الفقر وجنون البترول

كما كان آباء سكان ساحل خليج عمان، يعيشون بانتظار صيد ثمين، فإنهم يعيشون هم اليوم بانتظار اكتشافات جديدة من «زيت الأرض». ويساعدهم هذا السراب الدائم على تحمل الفقر المدقع. إن أكثر المناطق سكاناً، هي المناطق السهلية، التي يهطل المطر فيها، والصالحة للزراعة في ظفار، والجبل الأخضر، والباطنة، والتي تنتج أشجار النخيل فيها أنواعاً من التمور مختلفة الطعم والرائحة؛ كما هي الحال في الواحات<sup>(٢)</sup> الكبرى كلها، ويمكن أن يزرع في ظلها أنواع مختلفة من الفواكه والخضار. وتشكل الحمضيات، والتمور، وأنواع الحبوب أهم المنتجات الزراعية في البلاد. وفي الداخل، كما في اليمن، تنوع الزراعات، باختلاف درجة الارتفاع، فيزرع السكان المدرجات الجبلية، التي تُروى حسب طرق بدائية جداً. ويعمل الحضريون جميعاً في زراعة منحدرات الجبل الأخضر، أو في الأودية المحمية من هواء

---

(١) جيمس موريس: سلطان عُمان، فابر، لندن، ١٩٥٦م. - وانظر أيضاً: رودريك أوزن، الفسحة الذهبية، كولنس، لندن، ١٩٥٧م.

(٢) مفردها: واح وجمعها: واحات على غير قياس، قال ياقوت في معجم البلدان (الواحات) ولا أعرف معناها، وما أظنها إلا قبطية. وليس في المعاجم العربية ما شاع من أن مفردها واح (الترجم).

الصحراء اللافح. وفي هذه المنطقة يُنتج عنب مسقط، التي دخلتها شجرة الكرّمة على أيدي الغزاة البرتغاليين، الذي مروا عليها في القرن السادس عشر.

وعلى الساحل، تحول السكان الذين ينحدرون من نسل القراصنة الشرسين، إلى صيادين مسالين، وإلى غاصة متمرسين على اللؤلؤ، وإلى بحارة. ولكنهم لم يتخلوا عن التهريب، ونقل الأسلحة عندما تسنح لهم الفرصة، على الرغم من الحراسة التي تقوم بها الحراقات البريطانية. وإن كثرة الأسماك على الساحل، تجذب قسماً كبيراً من سكانه، الذين يجدون في الصيد موارد للعيش، وغذاء. فالشتاء الذي يجعل ماء المحيط باردة، ويدفع الأسماك الصردة نحو مياه الشواطئ الدافئة، هو موسم صيد السردين، الذي يمارسه الصيادون من مضيق باب المندب حتى مضيق هرمز. ويصطادون أيضاً، وبكثرة [١٧٩] سمك القرش، الذي تُصدّر زعانفه المجففة والمملحة إلى الصين. وتُنقل أنواع أخرى من الأسماك نحو الداخل لبيعها.

لقد اختار سلطان مسقط، بسبب تجارته الخارجية الموجهة نحو الهند والشرق الأقصى، الروبية الهندية عملة رسمية في سلطنته؛ ولكن سكان الداخل، كما هو الحال في محمية عدن، وفي اليمن، يفضلون التعامل بريال ماريا تيريزا، إمبراطورة النمسا، الفضي اللامع، والمسمى تالر. تصدر عمان التمور، والحمضيات، والسمك المجفف. وتستورد الأرز، والمنسوجات القطنية، والقمح، والبن.

إن الخط البحري بين بومباي والبصرة لشركة بريتيش أنديا ستام نافيجيشين British India Steam Navigation Company، يمر بميناء مسقط، الذي تمر به أيضاً سفن شركة ستريك لاين F. Strick Line، وسفن شركة لانوفيل كومباني هافريز بيناسولير دو نافيجاسيون La Nouvelle Compagnie Havraise Péninsulaire de Navigation.. وتقوم مراكز السكان المحليين بعمليات نقل مستمرة بين موانئ السلطنة، وموانئ البلاد المجاورة للخليج، وباكستان. ويغامرون بالذهاب حتى جزيرة زنجبار، مجتازين

المحيط الهندي، كما كان يفعل بحارة مسقط القدماء، الذين كانوا يذهبون لمهاجمة المستعمرات البرتغالية في شرق أفريقيا .

لقد أنشأ الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، مدرجات لهبوط الطائرات في صلالة، وفي جزيرة مصيرة، على الساحل الجنوبي لعمان. وأصبحتا قاعدتين لسلاح الجو الملكي البريطاني، الذي استأجرهما من السلطان مقابل عائد سنوي مقداره ٦ آلاف جنيه إسترليني. وهناك مدرج آخر قرب مطرح، يُستخدم للنقل الجوي المدني، ولا يمكن استخدامه إلا بعد علم مسبق، لا يقل عن ٤٨ ساعة، وبعد الحصول على موافقة السلطان. ولا يوجد في السلطنة حتى اليوم طريق معبدة تستحق هذا الاسم، إذا استثنينا السبعة إلى ثمانية كيلومترات، التي تربط مسقط بمطرح؛ وإن الجولة المأثورة، التي قام بها السلطان سعيد بن تيمور في ديسمبر «كانون الأول» ١٩٥٥م، وعبر خلالها السلطنة من جانب إلى آخر، كانت أول اتصال بري بين ظفار ومسقط، بالالتفاف حول السلسلة الجبلية من الشمال. ومنذ ذلك الحين، أجبر التنقيب عن البترول الشركات صاحبة الامتيازات في ظفار وعمان، على شق بعض الطرقات، من الساحل إلى الداخل.

## [١٨٠] امتيازات وتنافس

حتى عام ١٩٥٣م، كانت شركة بتروليم ديفلوبمنت(عمان) ليمتد Petroleum Development (Oman) Limited، فرع من شركة العراق بتروليم، هي صاحبة الامتياز الوحيد للتنقيب عن البترول في السلطنة. ولم يؤدِ السير الذي قامت به إلى أي نتيجة، فتنازلت في ظروف غامضة عن الامتياز، الذي يغطي منطقة ظفار للسيد وندل فيليس، الذي باعه بدوره لشركة سيتيز سيرفيس أويل كوربوريشين. Cities Service Oil Corporation. ويبدو أنه انتقال الامتياز كان له آثار

حاسمة في تطور عمليات التنقيب. لقد أعلنت شركة سيتيز سيرفيس، خلال سنة ١٩٥٧م، بلهجة المتصر، بعد سنوات من السبر والحفر، عن اكتشاف كميات من البترول صالحة للاستثمار التجاري في منطقة امتيازها. وحمل التغلغل إلى داخل ظفار الشركة على إنشاء بنية تحتية أولية من الطرق تتيح لها ذلك، وإذا تأكد البدء باستثمار البترول، فإن الإقليم البعيد موعود بتطور سريع. وينبغي لهذا الأمر أن يعزي السلطان سعيد عن خيبة الأمل التي أُصيب بها في عُمان.

لقد ساد الاعتقاد طويلاً، أن المناطق الجبلية الثائرة في عُمان، هي المناطق التي يُحتمل وجود البترول فيها. وهكذا هم البشر، لا يتطلعون إلا لما هو صعب المنال. إن التنقيب الذي جرى في ظروف مضمّنية، بسبب عدم الاستقرار والخوف، أدى في ديسمبر «كانون الأول» ١٩٥٥م، إلى عملية صاعقة أفضت، بعد حملة خاطفة مولتها شركة البترول، إلى عزل إمام عُمان، زعيم القبائل الثائرة. أما في الشمال فقد احتلت قوات من السكان الأصليين، تحت قيادة بريطانية، على واحة البريمي. لقد مهدت هذه الأعمال الطريق لإقامة جسر جوي، نقل البريطانيون بوساطته على وجه السرعة أطناناً من معدات الحفر إلى فهود، بينما كان العمال يشقون الطريق بين الساحل ومعسكر الحفر. إن التنقيبات الأولية، الجيولوجية، والجيوفيزيائية، التي عينت المواضع المختارة لإجراء الحفر، كانت مشجعة، وبشرت بنتائج سريعة وملموسة. وبينما كانت السلطات البريطانية تضع يدها على المناطق الداخلية، وتزيح الإمام المتمرد، متخفية وراء سلطان مسقط [١٨١] كثر الحديث عن فهود والآمال المعقودة عليها لاكتشاف مخزون بترولي غزير. وبعد ثمانية عشر شهراً، دلت المعلومات المستقاة من مقر شركة العراق بتروليوم، أن هذه الآمال لم تكن في موضعها.

في شهر يونيو «حزيران» ١٩٥٧م حُفِر بئران، وصل عمقهما إلى ١٢ ألف قدم، دون الوصول إلى الجيوب البترولية المنتجة، ولا حتى إلى دلائل مبشرة. وكانت

الاستعدادات جارية لنقل آلات الحفر عندما أدت عودة الإمام غالب، في يوليو «تموز» ١٩٥٧م إلى اندلاع نار الثورة في عُمان. وفي نهاية العام كانت المعدات قد نقلت إلى الشمال. ولم يكن عدم نجاح عمليات الحفر التي أجريت يعني أن البترول لا وجود له في فهود، لذلك يستمر التنقيب، يحدوه بعض الأمل في اكتشاف البترول. لقد بدأ صبر السلطان ورعاياه ينفد شيئاً فشيئاً، وهم يرون الثراء الفاحش في الإمارات الأخرى التي اكتشف فيها البترول. لقد حل جنون البترول في كل زاوية من زوايا الجزيرة العربية الغامضة، ودفع أمراءها البدو إلى نزاع مريع على الأرض، وهي نزاعات تشبه ما كان يجري بين المزارعين في أوروبا. ولكن المراهات هنا مختلفة بالطبع كل الاختلاف.

## إمبراطورية سلاطين مسقط المندثرة

كان اكتشاف البترول بمثابة ولادة جديدة لبلد السيد سعيد بن تيمور، سلطان مسقط، الذي ورث في عام ١٩٣٢م سلطنة خائرة، يفتك بها الفقر. وسعيد هذا رجل قليل الكلام، صبور، يهتم بتطوير السلطنة، كثير الأحلام والمشروعات، يدونها على دفاتر صغيرة يدسها في جيبه. ولا يعرف أحد مقدار موارده، التي ينبغي أن تكون متواضعة جداً، لأنها تُجبي أساساً من المكوس الجمركية، ومن الإيجارات السنوية، التي تدفعها له الشركات البترولية صاحبة الامتيازات. «إنه يقوم بجولات كثيرة، ويمشي مستغرقاً في أحلام اليقظة، ويحدث نفسه قائلًا: عندما سيسيل النفط نحو البحر سيكون هنا سد، وهناك طريق، وفي هذه الساحة مدرسة، وأبعد قليلاً مستشفى. وستعود من جديد عُمان الغامضة، التي يتجاهلها الناس، بلداً عظيماً». [١٨٢] كان الأوروبيون يجهلون تاريخ عُمان جهلاً تاماً قبل أن يحتل البوكيرك العظيم، مسقط في عام ١٥٠٨م. ويذكرنا اليوم حصن برتغالي، مازال قائماً

هناك، أن مسقط كانت، إبان قرن ونصف، تضم وكالة برتغالية تجارية<sup>(١)</sup>، سيطرت على تجارة الخليج العربي كلها، وكانت قاعدة للغزاة البرتغاليين ليتدخلوا نحو الداخل. وفي حوالي سنة ١٦٥٠م<sup>(٢)</sup>، انتفض العرب العُمانيون، وطردوا المحتلين الأجانب. ومد العمانيون سلطتهم بالتدريج، حتى بلغت عام ١٧٣٠م الممتلكات البرتغالية كلها في إفريقيا الشرقية، مقديشو، ومباسا<sup>(٣)</sup>، وجزر مافيا<sup>(٤)</sup>، وزنجبار<sup>(٥)</sup>. وبعد فترة احتلال فارسي قصيرة من ١٧٤١م إلى ١٧٤٣م، جاءت الأسرة الحاكمة<sup>(٦)</sup> الحالية من الجبال، وأنشأت سلطنة مسقط.

وفي نهاية القرن الثامن عشر الميلادي استولى السيد سلطان<sup>(٧)</sup>، جد الحاكم الحالي، على مسقط، وعلى المنطقة الساحلية، وعبر الخليج لاستعادة جوادر، وقشم،

---

(١) تعرف هذه الوكالة بكنج : انظر عمان كتاب من إصدار وزارة الإعلام العمانية، سنة ١٩٩٢م، ص ٢٦ (النييف).  
(٢) في ٢٣ يناير «كانون الثاني» ١٦٥٠م شن الإمام سلطان بن سيف [ الصحيح : سيف بن سلطان اليعربي ] هجوماً عنيفاً على البرتغاليين واستولى على قاعدتي الجلالي والميراني. انظر كتاب: عمان وشرقي إفريقيا، م. س. ص ٦٤ .

(٢) جزيرة مباسا، تكتب بالألف الطويلة وبالتاء المربوطة، وقد كتبناها بالألف الطويلة تبعاً لمبارك بن علي الهنائي، . في كتابه: العمانيون وقلعة مباسا، سلسلة تراثنا، العدد التاسع، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، يوليو «تموز» ١٩٨٠م. وانظر كتاب: عمان وشرقي إفريقيا، م. س. ص ٧٧-٧٩، وفيه أن الإمام سيف بن سلطان استولى على قلعتها في ديسمبر «كانون الأول» ١٦٩٨م (المترجم).

(٣) انظر كتاب: عمان وشرقي إفريقيا، م. س. ص ٥١ (المترجم).

(٤) المصدر السابق، ص ٧١-٧٦، وقد قرر السلطان سعيد بن سلطان اتخاذ زنجبار عاصمة له والإقامة فيها عام ١٨٣٢م بسبب موقعها التجاري الرائع، وغناها بمياه الشرب النقية، وغير ذلك (المترجم).

(٥) يعني أسرة البوسعيد، التي انتخب أحد وجهائها أحمد بن سعيد بن محمد البوسعيد إماماً في عام ١٧٤٤م، وهو مؤسس الأسرة، واستمر حكمه ٣٩ عاماً، وتوفي عام ١٧٨٣م (المترجم).

(٦) سلطان بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي ١٢٠٦-١٢١٩هـ / ١٧٩٢-١٨٠٤م. انظر كتاب: بريطانيا والخليج ١٧٩٥-١٨٥٠م، جون ب. كيللي، ترجمة محمد أمين عبد الله، نشر وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان، د. ت. ج ١، ص ٢٥ وما بعدها (المترجم).

و شهاب ، وهرمز . وظل إمام الرستاق<sup>(١)</sup>، الزعيم الديني، مسيطراً على الداخل، ولكن السيد سلطان كان يسيطر على جانبي مضيق هرمز، وعلى الجزر، وامتدت إمبراطوريته حتى إفريقيا. لقد كانت تلك الحقبة تشهد تنافساً محموماً لبسط النفوذ في منطقة الخليج العربي، وفي مناطق أخرى، بين الفرنسيين والبريطانيين، وكان نابليون الأول يحلم بانتزاع إمبراطورية الهند من البريطانيين، فأرسل «العريف القصير» مبعوثه إلى مسقط<sup>(٢)</sup>، ولكن البريطانيين كانوا أسرع منه إذ نجحوا في عام ١٧٩٧م في عقد أول اتفاقية صداقة مع السلطان، وكان الهدف الرئيسي من الاتفاقية، الوقوف في وجه الطموحات النابليونية، ثم الوقوف في وجه التجار الهولنديون. وفي عام ١٨٠٠م، سُمح لأول مقيم سياسي بريطاني بالإقامة في مسقط. حيثُ بدأ البريطانيون تنظيم حملتهم لمحاربة القرصنة، التي كانت تضر بمصالح شركة الهند الشرقية البريطانية، وبدأت بريطانيا منذ ذلك الوقت تؤمن الحراسة الدولية في الخليج العربي، بمساعدة حلفائها المحليين. لقد كانت مصلحة البريطانيين المؤكدة، تكمن في ضمان مرور آمن لسفنهم في مضيق هرمز، وإن دخول الخليج العربي يؤمن لهم التغلغل في الشرق

---

(١) عاصمة دولة إمامة عُمان، ومنها انتقلت العاصمة إلى مسقط، نقلها حمد بن سعيد (١١٩٩هـ / ١٧٨٤م - ١٢٠٦هـ / ١٧٩٢م) البوسعيدي. وانظر في قضية الإمامة والسلطنة ولقبى الإمام والسلطان كتاب: بريطانيا والخليج، موثق أعلاه، ج١، ص ٢٢-٢٦، وفيه: أن الرستاق هي البلدة الوحيدة إذا استثنينا نزوى وصحار التي يجوز فيها إقامة صلاة الجمعة، وأصبحت لذلك العاصمة الطبيعية لعُمان، واختيرت لتكون مقراً لحكومة البلاد. والمقصود بإمام الرستاق هو سعيد بن أحمد بن سعيد، الذي استمر في حكم الرستاق حسب الاتفاق الذي وقعه أبناء أحمد بن سعيد الثلاثة في بلدة بركا عام ١٧٩٣م، والذي أعطى صحار لقيس بن أحمد، والرستاق لسعيد، ومسقط لسلطان. انظر جون كيللي، بريطانيا والخليج، ج١، ص ٢٣. (المترجم).

(٢) في عام ١٧٩٩م، وجه بونابرت خطابين إلى سلطان بن أحمد، وتيبو صاحب يبلغهما بأن أي سفن تصل إلى السويس من بلديهما سوف تلقى كل تسهيل ومساعدة، كما وعد الأخير بتقديم المساعدة إليه في صراعه ضد البريطانيين. انظر جون كيللي، بريطانيا والخليج، ج١، ص ١٠٣-١٠٤. وانظر نص الرسالتين في كتاب: سلطنة عُمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١-١٨٥٦م، تأليف رودولف سعيد روت، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٣م، ص ١٤١-١٤٢ (المترجم).

الأوسط من الباب الخلفي<sup>(١)</sup>. ويمنع في الوقت نفسه [١٨٣] أي قوة أخرى من السيطرة على المنطقة، مما يشكل خطراً على اتصالاتهم البحرية والبرية مع إمبراطورية الهند، لقد كان ذلك ما يؤرق رجال السياسة والدبلوماسيين البريطانيين جميعاً.

لقد شهدت الإمبراطورية البحرية لسلاطين مسقط أوج مجدها واتساعها في عهد سعيد بن سلطان (١٨٠٤-١٨٥٦م)، إذ كانت المراكب العمانية الكبيرة، تقوم برحلات منتظمة بين السلطنة وممتلكاتها الإفريقية، وبدا أن الصداقة البريطانية مثمرة، وبدأت معالم السرور على وجوه التجار بسبب ازدهار أعمالهم.

وفي عام ١٨٣٢م، خبا نجم مسقط فترة من الزمن، عندما قرر السلطان نقل عاصمته إلى إفريقيا، إلى زنجبار، واستقر، يحكم من هناك إمبراطوريته كلها حتى مات. وبعد موت سعيد بن سلطان في عام ١٨٥٦م، اقتسم ولداه مملكته، إذ احتفظ أحدهما بالممتلكات الإفريقية، والأخر سيطر على الممتلكات العربية. تطورت الأحوال، ولم يبق ثابتاً، طوعاً أو كرهاً، سوى الحماية البريطانية. وكانت زنجبار أكثر تبعية للبريطانيين من مسقط.

إن الموقع الاستراتيجي الهام للسلطنة العربية جذب إلى بلاطها مبعوثي القوى المختلفة، وكانت علاقاتها الخارجية مزدهرة منذ عهد سعيد بن سلطان، وكان من الطبيعي أن تشهد تطوراً، ويتسع نطاقها. ففي عام ١٨٣٣م، وقّعت معاهدة صداقة- ما تزال سارية المفعول- مع الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت بريطانيا من جهتها، قد عقدت مع السلطان معاهدة جديدة، سميت معاهدة تجارة وصداقة في عام ١٨٣٩م. وأرست فرنسا بدورها علاقة تحالف مع مسقط في عام ١٨٤١م، ثم وقعت معها معاهدة صداقة جديدة في عام ١٨٤٤م. ووقعت هولندا معاهدة تجارية مع مسقط في عام ١٨٧٧م. وكانت القوتان الكبيرتان المتنافستان في المنطقة؛ فرنسا وبريطانيا، متعارضتان إبان فترة طويلة من القرن التاسع عشر، واستطاع السلطان

(١) انظر السير ريدر بولارد: بريطانيا والشرق الأوسط.

بسبب تنازع القوتين أن يحافظ على «استقلاله». إذ رضيت فرنسا في عام ١٨٦٢م، بالاتفاق مع بريطانيا على ضمان استقلال سلطان مسقط، ووحدة أراضيه [١٨٤]. ولكي تزعج بريطانيا، التي أعلنت حرباً شعواء على القراصنة والمهريين، ساعدت السلطات القنصلية الفرنسية بعض المراكب، المشكوك فيها، على النجاة من ملاحقة البحرية الملكية البريطانية، بأن سمحت لها أن ترفع العلم الفرنسي ذي الألوان الثلاثة. ثم أقلعت عن ذلك أمام الاحتجاجات البريطانية المستمرة، وبعد توقيع الاتفاق الودي Entente Cordiale بين الدولتين.

## التفوق البريطاني

بعد الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من أن معاهدة الصداقة الفرنسية مع سلطنة مسقط، ما تزال سارية المفعول، أغلقت القنصلية الفرنسية في مسقط، وكان ذلك دلالة على أن التفوق البريطاني أصبح حقيقة مطلقة، ولكن بريطانيا كانت حريصة على المحافظة على المظهر الخارجي لاستقلال السلطنة. وهكذا، اعترفت بريطانيا باستقلال السلطنة، عندما نوقشت عام ١٩٠٥م في محكمة العدل الدولية في لاهاي مشكلة مراكب مسقط. وتطلق لندن على ممثلها في مسقط لقب قنصل، مع أن له الصفة نفسها التي يمتلكها بقية المقيمين السياسيين البريطانيين في إمارات الخليج الأخرى، وخصوصاً خضوعه لسلطة المقيم السياسي البريطاني في الخليج المقيم في البحرين. لقد وضعت بريطانيا علاقاتها مع السلطنة في إطار قانوني يحافظ على المظاهر. وفي الخامس من فبراير «شباط» ١٩٣٩م، جددت بريطانيا مع السلطنة اتفاقية الصداقة والتجارة والملاحة، التي كانت قد وقعت في ١٩ مارس «آذار» ١٨٩١م، والتي تضمنت حقوق الحصانة السياسية للرعايا البريطانيين في السلطنة، وقد حدت الاتفاقية الجديدة من تلك الحقوق قليلاً. وكان السلطان قد أصدر في ٢٠ يناير «كانون الثاني» ١٩٢٣م مذكرة، تعهد فيها بعدم إعطاء أي امتياز لاستثمار الثروات الطبيعية دون استشارة الممثل البريطاني في مسقط.

وفي ٢٠ ديسمبر «كانون الأول» ١٩٥١م، وقع السلطان السيد سعيد بن تيمور، والمقيم السياسي البريطاني في الخليج باسم جلالة ملكة بريطانيا، اتفاقية صداقة وتجارة وملاحة جديدة، احتفظت بموجبها بريطانيا بحقوقها في تشريع الحصانة السياسية لغير المسلمين [١٨٥] من رعايا المملكة المتحدة، ومستعمراتها، وقد وردت ترتيبات ذلك هذه المرة في الرسائل المتبادلة الملحقة بالمعاهدة.

وإذا كان الوضع القانوني لسلطنة مسقط، يجعل منها دولة مستقلة في نظر القانون الدولي، فإن الواقع العملي يجعل منها محمية بريطانية حسب القانون الدولي نفسه، الذي يستخدم عادة لتعريف هذا النوع من الكيانات السياسية؛ إذ إن الشؤون الخارجية، والدفاع، والمالية-عبر لعبة المساعدات-في السلطنة تحت إشراف البريطانيين. وبريطانيا هي التي تمثل السلطان في النزاع حول واحة البريمي، كما أن جنودها وطائرات سلاح الجوي الملكي، وليس فقط القوات المحلية التي يقودها ضباط بريطانيين، اضطرت إلى التدخل في يوليو-أغسطس «تموز-آب» ١٩٥٧م لتدعيم سلطة مسقط المهتدة في عمان الثائرة ضدها.

## القوى الخفية في عمان الثائرة

لقد كشفت ثورة عُمان في صيف عام ١٩٥٧م، مدى تعقيد الوضع السياسي الداخلي في السلطنة. إن السلطة الفعلية لسلطان مسقط، لم تكن في واقع الأمر، حتى عام ١٩٥٥م، تتخطى المنطقة الساحلية من عُمان. أما الداخل الجبلي، الذي تسكنه قبائل صعبة المراس، ومتخلفة، فكان خاضعاً لإمام إباضي، يقيم في نزوى، ولا يعترف إلا بتبعية اسمية لسلطان مسقط، الذي يستطيع أن يقطع عليه اتصالاته الحيوية مع الخارج.

وفي عام ١٩١٥م، لم يستطع سلطان مسقط إخماد ثورة قبائل الداخل إلا بمساعدة القوات البريطانية-الهندية. واستمرت الثورة مشتعلة حتى عام ١٩٢٠ عندما وقَّعت معاهدة «السيب» المشهورة، بين إمام عمان، وسلطان مسقط، وقد اعترفت هذه المعاهدة لقبائل الداخل بحقهم في شكل من الاستقلال الذاتي. ولم يُعثر لهذا النص العجيب على أثر، في أعقاب الخلاف القانوني الذي نتج عن التدخل البريطاني المسلح إلى جانب سلطان مسقط عام ١٩٥٧م؛ ولكن حكومة الهند، التي كانت تمثل بريطانيا في منطقة الخليج حينئذٍ، اعترفت في عام ١٩٢٨م بإمام عُمان، سيداً لإمامة عُمان المستقلة.

لم يحاول السيد سعيد بن تيمور، الذي خلف والده في عام ١٩٣٢م، مطلقاً أن يؤكد نفوذه في [١٨٦]عُمان حتى حل ذلك اليوم، الذي وجدت فيه المملكة العربية السعودية ومصر، محاوراً لين العريكة في شخص الإمام غالب، ومحاوراً أكثر ليناً في أخيه طالب. إن السعوديين، الذين لم يتخلوا أبداً عن حلمهم المتمثل في توحيد الجزيرة العربية كلها، والناصرين الذين أقسموا على التخلص نهائياً من الاستعمار البريطاني، اقترحوا على إمام نزوى إعلان استقلاله عن إمام مسقط، الذي يتبع الحكومة البريطانية تبعية تامة، ولا يولي اهتماماً كبيراً لفكرة الوحدة العربية. وليست عمليات التنقيب عن البترول التي كانت تنشط في الجنوب بغربية عن ذلك. وفي صباح ١٥ ديسمبر «كانون الأول» ١٩٥٥م و-بمساعدة شركة البترول-وبقيادة الكولونيل واترفيلد Waterfield، أُعدت عملية سرية، حملت قوات سلطان مسقط إلى أسوار نزوى. وأُزيح الإمام الذي أدهشه الأمر، وتمكن أخوه طالب من الفرار. وحدث بعض إطلاق النار، ولم تسقط أي ضحية، ولم يعد للسيد سعيد أي منافس.

ولما علم السلطان بالنبأ السعيد، غادر ظفار، حيث كان ينتظر على أحر من الجمر نتائج الحملة، بموكب النصر عبر البلاد التابعة له، والتي كان يراها لأول مرة. ولكنه تجنب التوغل في المناطق الجبلية، وباستثناء زيارته نزوى، التف حول الجبل

الأخضر، الذي ليس هناك طريق تؤدي إليه، ذاهباً إلى الشمال، لينزل بعد ذلك على طول الساحل نحو عاصمته المخلصة له.

واستطاع مراسل صحيفة التايمز جيمس موريس، أن يواكب هذه الجولة البطولية، ويصف لنا مشاهداته. لقد كان السلطان في كل مراحل جولته يتلقى عهود الولاء من مختلف شيوخ القرى والقبائل. وتوقف السيد سعيد، قبل أن يعود إلى مسقط، في واحة البريمي، وقابل هناك الشيخ شخبوط بن سلطان، حاكم أبو ظبي، الذي يقتسم معه السيادة على الواحة الكبيرة في جنوب شرقي الجزيرة العربية. وكان قد زار في طريقه المنقبين عن البترول، التابعين لشركة سياتيز سيرفيس في ظفار، والتابعين لشركة بتروليوم ديفلوبمنت عمان Petroleum Development-Oman في فهود. وكان في كل مكان يسجل ملاحظات على مذكرته التي لا تفارقه.

ولكنه عندما عاد إلى قصره المتواضع، لم يكن أحد يعلم ماذا يخفي من أفكار وراء قسماته المتعبة.

وإذا كان السلطان يفكر أن كل شيء قد بدأ الآن، فقد كان مصيباً في ذلك. فقبل عدة أسابيع كانت قوات [١٨٧] ساحل عمان المتصالح (Turucial Oman) Scouts، بقيادة الضباط البريطانيين، قد أخرجت القوات السعودية من واحة البريمي، وشهد الخلاف حولها نهاية عنيفة، غير متوقعة، ولكنها مؤكدة. ولم يكن حاكم الرياض ليرضى أن تتم ببساطة إزاحة الإمام غالب، وهو شيخ ديني، اختير اختياراً قانونياً، وحليف له. والحقيقة التي ازدادت مع الأيام رسوخاً، هي أن هذا الخلافات في هذه المنطقة النائية ليس لها سبب آخر إلا البترول. وقد تلقى مراسل التايمز تويحاً عنيفاً من السلطات البريطانية لأنه أشار إلى ذلك، ولكننا علمنا أكثر مما أشار إليه حول هذا الموضوع. على أية حال، إن رغبة سعود وأرامكو تتعارض مع رغبة السلطان وشركة العراق بتروليوم.

أما طالب ، الذي استقبله ابن سعود، وحماه، وأكرمه، وسلحه، ومونه، بعد سقوط نزوى، فإنه قد عاد في يوليو «تموز» ١٩٥٧م، على رأس بضع مئات من أنصاره ليثير عُمان على سلطان مسقط. ولكن مطاردات القوات الجوية الملكية، المنطلقة من قواعد عدن والشارقة والبحرين، ومشاة الجبال الاسكتلنديين، وقوات مسقط وساحل القراصنة، استطاعت في نهاية الأمر إخماد الثورة. وقد استنفرت كل القوات البريطانية في الشرق الأوسط لعدة أسابيع. واستطاعت الدعاية الموجهة بحنكة من القاهرة أن تعطي القضية بُعداً عالمياً. لقد فقد البريطانيون رباطة جأشهم، التي اشتهروا بها، وأسهمت أخطاؤهم في توفير دعاية كبيرة للثائرين. أخفق غالب وطالب، ولكنهما أفلتا من قبضة البريطانيين. ودعمت بريطانيا قواعدها وقواتها العسكرية في الشرق الأوسط، في حين أن إمام مسقط مازال يتساءل عما يخبئ له خصومه في المرة القادمة. إنه الآن يسيطر على نزوى، وعمان، والبريمي. وهو في موقعه الاستراتيجي، يشرف على مدخل الخليج العربي، ويمكنه أن يعدّ بلهفة وشوق ناقلات البترول التي تمخر عباب الماء أمام ساحله. ومع قليل من الحظ، يأمل السيد سعيد أن يرى هذه الناقلات تحمل بترول مسقط، إن شاء الله.

## [١٨٨] الفصل الثالث عشر

### البتترول بلا حدود

إذا وصلنا إلى مسقط وعمان نكون بذلك قد دخلنا في العالم المغلق، والغامض، للخليج العربي، عالم المؤامرات البترولية الدنيئة، والمناورات العنيفة، والخلافات على الحدود بين المشايخ، والمصالح المتعارضة للقوى العظمى المتحالفة في الظاهر، عبر شركاتها البترولية الوطنية. وإذا غادرنا عمان صعوداً على سواحل الخليج، نحو الشمال، فإننا لا نصادف إلا إمارات صغيرة، مشرفة على البحر، تحت الحماية البريطانية، تحرص بريطانيا كل الحرص على المحافظة عليها، وعلى إبقائها بعيدة عن رغبة السعوديين في ضمها إلى مملكتهم الكبيرة المجاورة، التي بدأت تظهر فيها ملامح النفوذ الأمريكي. يستطيع في هذه الإمارات رعاة قطعان الماعز، أن يصبحوا خلال بضعة سنوات من كبار الأثرياء بفضل العائدات الضخمة التي حملها لهم الذهب الأسود. ومثال الجيران الشماليين علمهم أنه يمكن جمع ثروات طائلة بفضل مساحات صغيرة من الرمال، دون أن يكون المستفيدون منها يستحقون ذلك. وكل هذه الثروات التي تنتقل في سيارات الكاديلاك المكيفة تشعل نار الحسد الذي ينعكس موتاً. إن الروائح الكريهة المنبعثة من البترول، ينتشي بها بكل تأكيد عرب الخليج، أكثر مما ينتشون بالأريج المغربي، المنبعث من «حديقة غناء». وإن نفحة خبيثة من جنون البترول، نوع جديد من شيطان الرهان، تستثير بلا انقطاع الخيال الخصب للقاطنين على أطراف «خليج الأمل السحري».

في هذا العالم الصغير، الذي اعتاد على الصراعات الأسرية والقبلية، وعلى الغزوات العابرة، وعلى تنوع السلطة الفعلية التي تحكمه، لم تُرسم في يوم من الأيام الحدود بدقة. ليس لأن [١٨٩] القبائل البدوية، والزعماء الذين ينحدرون منها، يجهلون معنى الحدود الأرضية؛ بل لأن كلمة «حدود» بالعربية، ليس لها المعنى الجامع المانع، الذي تحمله الكلمة الأوروبية المعادلة لها.

إن مفهومنا القانوني الصارم للحدود، التي تُرسم بدقة على الخريطة، المرتبط بحقوق سيادة معينة يدل عليها، لم يصبح له هنا قيمة ولا أهمية، إلا عندما ثبت أن السائل العجيب الثمين ينساب في باطن الأرض دون أن يعبأ برغبات البشر. إن كسب عدة كيلومترات في منطقة الحدود، قد يعني بالنسبة إلى الزعماء العرب، الحصول على الثروة أو فقدانها، وإلى المستثمرين الأجانب بترو- دولار، أو بترو- إسترليني.

إن الامتياز الذي منحتة المملكة العربية السعودية لشركة أرابيان أميركان أويل، يشمل بالطبع حدود المملكة المسلم بها... التي لم تُرسم من جهة الربع الخالي<sup>(١)</sup>، هذا «الفضاء» الهائل في الجزيرة العربية.

ففي الجنوب والجنوب الشرقي، حصلت شركة بتروليوم كونسيسيونس Petroleum Concessions على امتيازات محمية عدن، وحصلت شركة سيتيزسرفيس على امتياز التنقيب في ظفار، وشركة بتروليوم ديفلوبمنت في عمان وساحل القراصنة، كل هذه الشركات تتمتع بامتيازات تنتهي نظرياً عند حدود هذه الكيانات مع المملكة العربية السعودية؛ ولكن هذه الحدود كلها لا وجود لها!

إن اكتشاف البترول في شبوة، وفي بئر ثمود، وفي ظفار، وفي أبوظبي، حرك أطماع السعودية وأصدقائها الأمريكيين. لقد حصلت شركة العراق بتروليوم على امتياز للتنقيب في مساحة ٦٠٠ ألف كم مربع من مساحة الجزيرة العربية، ما عدا ظفار، وهي شركة ذات ترجح فيها كفة المصالح البريطانية<sup>(٢)</sup>.

---

(١) بل تم ترسيمها ولم تعد غير مرسمه سواء منها المتصل علي الإمارات العربية المتحدة أو سلطنة عمان أو الجمهورية اليمنية ( المنيف).

(٢) أذكر أن شركة العراق بتروليوم كومباني، لها إدارة بريطانية، وتملك فيها شركتا B. P. وشل Shell البريطانيتين نسبة ٢٣,٧٥٪ لكل واحدة، ومن شركة فرنسية اسمها كومباني فرانسيز دي بترول Compagnie Française des Pétroles، وشركة أمريكية نيرايست ديفلوبمنت كوربوريشن، Le Near East Development Corporation التي تمتلكها مناصفة شركتا جيرسي ستاندر Jersey Standard، وسوكوني موبيل Socony Mobil، ويمتلك ورثة كالوست غولبنكيان Calouste Gulbenkian نسبة ٥٪.

إن التنقيب الذي تقوم به الشركات البريطانية، والمستقلة، في المنطقة الجنوبية من صحراء الربع الخالي، تطلب شق طرقا عبر الصحراء، في مناطق ملتبسة، يمكن أن [١٩٠] تكون الحدود السعودية فيها على بعد مئة كم إلى الشمال، أو خمسين كيلومتراً نحو الجنوب، حسب الصورة المرشمة لها في أذهان خلفاء ابن سعود. في حين أننا إذا أتينا من جهة الشمال، من الجانب الآخر لمحيط الرمال الراكد، فإن منقبي أرامكو يتقدمون تقدماً ملموساً نحو الجنوب، نحو منافسيهم. وإن الوسائل الحديثة من طائرات، وهيلوكبتر، وجرارات ضخمة، وبيوت متحركة مكيفة، ساعدت الجانبين على ولوج مناطق كانت منذ الأزل غير مأهولة.

وكلما تضاءلت المسافة الفاصلة بين المتنافسين، أصبح خطر نشوب الأزمة أكبر. ولعل هذا هو السبب الرئيسي، الذي بقي من أجله البترول المكتشف في مناطق متنازع عليها دون استثمار حتى اليوم.

إن أحد هذه النزاعات، الذي كان من المتوقع انفجاره، انفجر علناً منذ زمن، وبالتحديد بعد أن اقترب فريقا تنقيب، تابعين لشركتين متنافستين. لقد أظهر النزاع حول واحة البريمي مدى حدة التعارض البريطاني-الأمريكي في المنطقة. وتكمن أهمية الواحة، ناهيك عن البترول، في أن من يسيطر عليها، يسيطر على آلاف الكيلومترات المربعة المحيطة بها.

## أرامكو ضد شركة العراق بترول يوم: النزاع على البريمي<sup>(١)</sup>

إن كنز واحة البريمي، ليس البترول، وإنما الماء. فعلى طرف الربع الخالي، في

(١) خصص الدباغ فصلاً في كتابه المذكور سابقاً، ج ١، ص ٢٣٦-٢٣٩ للحديث عن البريمي، وقال إنها من صميم المملكة العربية السعودية. وإن تسميتها الأصلية هي توأم، وكان فيها تاجر يسمى البريمي يقصده رجال القوافل فيقايضون ما عندهم بما عنده، فغلب اسمه على اسمها. ويقول بعضهم إن اسمها مشتق من اسم نوع من النخيل يزرع في البصرة، ونقلت فسائل منه قديماً إلى هذه المنطقة التي عرفت باسمه، ومع الأيام حرف الاسم حتى أصبح البريمي (المترجم).

منطقة تمكّن فيها القحط، تمنح عيونها الحياة لعدد من القرى، تلتقي عندها طرق القسم الجنوبي الشرقي من الجزيرة العربية. وتبعد القرى الساحلية عنها أكثر من ١٠٠ كم، وأقرب قرية سعودية تبعد بضع مئات من الكيلومترات. إن الواحة نقطة التقاء، تلتقي عندها طرق الداخل الصحراوي كلها، سواء من عمان، أو من ساحل القراصنة. وإن ملكيتها وحدها تمكن من تحديد الحدود التقريبية لسلطنة مسقط وعمان، ولمشيخة أبوظبي، وللمملكة العربية السعودية. ولذلك كان من يسيطر عليها يحدد عملياً حدود الامتيازات البترولية لكل من الشركات الأمريكية والبريطانية المختلفة.

والواحة، في واقع الأمر، مجموعة من تسع قرى، بيوتها من اللبن، [١٩١] تفصل بينها مساحات صحراوية متفاوتة الاتساع: بريمي، وحماسة، وصعرا، يطالب بها سلطان مسقط وعمان، في حين أن شيخ أبوظبي يطالب بالقيمي، وهيلي، والقطارة، والمويجعي (المويقي)، والمعترض، والعين. أما ملك المملكة العربية السعودية فهو يطالب بالمنطقة كلها التي سميت باسم قرية البريمي. إن بريطانيا، حسب معاهدتها مع شيخ أبوظبي، وبناء على طلب مسقط، تدافع عن مصالح الشيخ والسلطان، التي تلتقي مع مصالح شركة العراق بترولوم.

إن وضع الواحة، المتميز نسبياً، في واحدة من أكثر مناطق الجزيرة العربية جفافاً، يجعل منها، باستثناء الساحل، ومنطقة عمان الشمالية، وساحل القراصنة، القسم الأكثر سكاناً.

إنها مركز طبيعي للزراعة والمبادلات التجارية، يغشاها بدو هذه المنطقة من الجزيرة كلهم، مهما كان الكيان السياسي الذي ينضون تحت لوائه. إن الفواكه، والخضار، والعلف، والتمور، التي تنتجها قرى الواحة تجري هنا مبادلتها بالأرز، والقهوة، والسكر، والمنسوجات، القادمة من الساحل. ويأتي إليها الرعاة البدو لبيادلوها بعض منتجات مواشهم بالأغذية المستوردة أو المنتجات الزراعية الحضرية. إن لهذه المراكز التجارية، أهمية فائقة في البلاد الصحراوية، وهي تتخذ شكل حاضرة

دائرية تشمل مئات الكيلومترات. وتشكل القرية الرئيسية في هذه الواحة، بريمي، مع قرية حماسة، مكاناً لتجمع البدو، وتبادل السلع بينهم. إن وجود البترول، الذي أصبح بحكم المؤكد، لن يكون من شأنه إلا مضاعفة الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للواحة.

وتستند المطالبة السعودية بهذه المنطقة إلى أن أسلاف الأسرة السعودية الحاكمة اليوم قد بسطوا سيادتهم على الواحة بين عامي ١٨١٣م و ١٨٦٩م، وخصوصاً خلال فترة ازدهار الدولة السعودية الأولى. وبعد أن زالت السيطرة السعودية عن واحة البريمي، ظلت فترة من الزمن دون سلطة تسيطر عليها، شأنها في ذلك، حسب القانون البحري، شأن [١٩٢] قطعة صغيرة من الأرض في عرض بحر مغلق من كل الجهات. ثم قام سلطان مسقط بصورة عفوية بضم القرى التابعة للقبائل التي ترتحل إلى عمان الشمالية إلى أرضه. أما شيخ أبوظبي، فيعدُّ القرى الست، التي ترتحل قبائلها إلى أراضيه جزءاً من مشيخته. وليس من المستبعد أن يكون بعض البدو ممن تجذبهم واحة البريمي، يترحلون إلى مناطق، يقع قسم منها على الأقل في الأراضي السعودية؛ غير أن معرفة ذلك متعذرة أيضاً لصعوبة تعيين النقطة التي تبدأ فيها تلك الحدود. وأمام هذه المسألة المعقدة، يلجأ البريطانيون إلى الاتفاقات البريطانية-التركية، التي تعود إلى سنتي ١٩١٣م و ١٩١٤م، والتي تحدد حدود سنجد نجد، وهي اتفاقات لا تعترف بها الحكومة السعودية. ونستطيع في هذا السياق أن نجد نصوصاً أخرى، تساوي في صلاحيتها الاتفاقات البريطانية التركية، وتسمح لبريطانيا في المطالبة بقسم كبير من الأراضي السعودية.

إن ما يؤجج النزاع، أكثر من النصوص، هو مواقف الجهات المختلفة، الموجودة في تلك المناطق. ونلاحظ فيما يلي التطور في المطالب السعودية.

برز النزاع أول مرة عام ١٩٣٥م، وأدى في عام ١٩٣٧م، إلى أول تعديل للحدود، دون أن تشمل المطالب السعودية المنطقة المتنازع عليها اليوم. وفي الوقت

نفسه تقريباً، ولكن، في الطرف الأخر، الشمالي الغربي من المملكة، أعلن الملك عبد العزيز، أنه لن يتخلى عن منطقة معان والعقبة، التي ألحقها بريطانيا بإمارة شرقي الأردن. وبعد الحرب، بدأ عصر البترول في الجزيرة العربية، وعزفت المملكة العربية السعودية عن المطالبة بمعان والعقبة، وأخذت تطالب بأراضٍ أخرى في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية. وفي عام ١٩٤٩م أطلقت المملكة مطلباً جديداً، شمل هذه المرة الأراضي المحيطة بقرية البريمي. وتدعي الحكومة السعودية أن موظفيها لم يتوقفوا أبداً عن جمع الزكاة من قبائل الواحة. أما بريطانيا فتري أن علاقات البريمي، تجارية كانت أو غيرها، تمر عبر [١٩٣] ساحل القراصنة أو ساحل عُمان، وليس مع المملكة العربية السعودية، واستنكرت، بشيء من نفاذ الصبر، هذا المظهر الجديد من مظاهر التوسع السعودي.

## احتراب وتسويات

في أواسط عام ١٩٥٢م، تمكنت قوات سعودية بقيادة تركي بن عتيشان من السيطرة على قرية حماسة. فأصدرت بريطانيا احتجاجاً شديداً للهجة، تلاه بعد وقت قصير هجوم مضاد أجبر ابن عتيشان على الانسحاب في عام ١٩٥٣م. وقد خففت الهدنة، التي توصل إليها الفريقان في أثناء ذلك، من حدة النزاع. وطالبت المملكة العربية السعودية بأن يجري في الواحة استفتاء شعبي، يقرر مصيرها، بينما اقترحت بريطانيا من جانبها التحكيم الدولي. ولم يتوقف خلال ذلك التنقيب عن البترول في المنطقة. وفي يناير «كانون الثاني» ١٩٥٤م، جاء الإعلان عن اكتشاف البترول في أبوظبي، ليؤكد الطبيعة البترولية للنزاع. ولكن أهمية هذه الاكتشافات ظلت حتى اليوم مجهولة.

واستقر الرأي على اللجوء للتحكيم، بعد المفاوضات، التي جرت في جدة بين

وزارة الخارجية البريطانية وحكومة الرياض، بين يناير ويوليو «كانون الثاني وتموز» ١٩٥٤م. وشكّلت لجنة مؤلفة من ممثل سعودي، وآخر بريطاني، ومن ثلاثة أعضاء محايدين، مهمتها: تعيين موقع الحدود المشتركة بين العربية السعودية، وأبوظبي، في المنطقة التي طالبت بها المملكة العربية السعودية عام ١٩٤٩م، وأبوظبي في عام ١٩٥٢م؛ وتقرير لمن تكون السيطرة على المنطقة الواقعة في دائرة مركزها يقع في قرية البريمي، ويمر محيطها في نقطة التقاء خط العرض ٢٤, ٢٥ شمالاً، بخط الطول ٣٦, ٥٥ شرقاً. في شمال المنطقة المتنازع عليها وجنوبها، وتحفظ شركات البترول بحقها في متابعة التنقيب.

واجتمعت لجنة التحكيم الدولية لأول مرة في مدينة نيس الفرنسية في ٢٢ يناير «كانون الثاني» ١٩٥٥م، وقد رئس الجلسة رجل القانون البلجيكي المشهور شارل دو فيشر Charles de Visscher، وهو قاضٍ سابق في محكمة العدل الدولية، في لاهاي، وكانت تضم حكماً كويماً هو: السيد دو ديغو de Dihaigo، وآخر باكستانياً هو: السيد محمود حسن، والشيخ يوسف ياسين ممثلاً عن المملكة العربية السعودية [١٩٤]، والسير ريدر بولارد Sir Reader Bullard عن بريطانيا، بوصفها تمثل سلطنة مسقط ومشيخة أبوظبي. وبعد أن طلبت اللجنة من الفريقين المتنازعين الامتناع عن القيام بأي عمل في المنطقة المتنازع عليها، انفضت، بعد أن اتخذت قرراً بعقد مؤتمر التحكيم في جنيف في موعد لاحق.

وعلى الرغم من ذلك، دارت بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا معركة بيانات، فاتهمت بريطانيا المملكة العربية السعودية، بتهرب السلاح، واستمالة بعض الأطراف في الأراضي المتنازع عليها عن طريق الرشوة. وردت المملكة قائلة: إن بريطانيا تُجوِّع سكان الواحة بالحصار الذي تفرضه عليهم؛ وردت الحكومة البريطانية بالقول: إن القوات المحلية، التي يقودها بريطانيون، تبذل جهودها لمنع تهريب السلاح، والذهب المخصص للرشوة؛ ثم تؤكد المملكة العربية السعودية، أن تلك

المبالغ مخصصة للهبات التقليدية، ودعت منظمة الصليب الأحمر الدولية، ومنظمة الصحة العالمية لمساعدة حماسه التي يحاصرها البريطانيون.

## التحكيم المستحيل

في هذه الأجواء المتوترة، اجتمعت اللجنة الدولية للتحكيم، في جنيف، يوم ٨ سبتمبر «أيلول» ١٩٥٥م. وسرعان ما اتضح أن الأجواء ليست مناسبة لفض الخلاف. فمُنذ ١١ سبتمبر صرح السير هارتلي شوكرس Sir Hartley Shawcross، المستشار القانوني الأول للوفد البريطاني أمام اللجنة، أن المملكة العربية السعودية لا تفك تحرق اتفاق التحكيم، والمقررات التي اتخذت في اجتماع نيس؛ وما زالت ترسل المبعوثين المحملين بالذهب إلى البريمي لاستمالة زعماء القبائل، وتدخل الأسلحة، ورجال الشرطة إلى الواحة؛ وطلب من اللجنة أن تعد مثل هذه الأعمال «مخالفة صريحة لمقررات اللجنة وأوامرها»، اللجنة التي ينبغي أن تضمن احترام مقرراتها. ناهيك عن أن المستشار البريطاني، شكك في نزاهة الحكم الباكستاني الذي طالت إقامته في مكة المكرمة حتى تأخر موعد بدء المناقشات. [١٩٥] وشكك أيضاً في سلامة طوية الحكم السعودي، الذي وجه له رئيس الجلسة تنبيهاً، لأن الدهشة اعترته عندما رآه ينقل لأحد الشهود تعليماته مكتوبة، في أثناء جلسة الاستماع لهذا الشاهد.

وبعد عدة أيام فاجأ الحكم البريطاني، السير ريدر بولارد، الجميع بالاستقالة، بعد أن اتهم الحكومة السعودية بأنها «في سعيها للسيطرة على الأراضي المتنازع عليها، تستمر علناً في استمالة الناس». وبعد وقت قليل، استقال رئيس اللجنة، والحكم الكوي بدورهما. حينئذٍ، أصدرت وزارة الخارجية البريطانية بياناً طويلاً، كشفت فيه تفاصيل ما دار في الجلسات. وعلمنا من هذا البيان، أن السعودية قدمت لبعض زعماء القبائل مبالغ طائلة، لتكسبهم إلى جانبها. وأن الشيخ زيداً، شقيق حاكم

أبوظبي، الذي أقر بذلك أمام اللجنة، حصل على مبلغ ضخيم، قدره ٣٠ مليون جنيه إسترليني (أكثر من ثلاثين مليار فرنك فرنسي!). وأجابت المملكة العربية السعودية في بيان نشرته سفارتها في لندن، في ١٩ أكتوبر «تشرين الأول»، مكذبة الاتهامات البريطانية جملة وتفصيلاً. وأعلنت الحكومة السعودية أن جلسات لجنة التحكيم كانت مغلقة، وكان ينبغي أن تظل النقاشات سرية، وإنها لا تستطيع بسبب ذلك، تنفيذ المزاعم البريطانية ببدأً ببدأً؛ ولكنها تكتفي بالقول: إن بريطانيا انسحبت من اللجنة عندما اتضح لها أن قرارها لن يكون لصالحها.

ويبدو الاتهام الأخير، مجرد اتهام ساذج، لمن يعرف الشخصية التي يتمتع بها السير ريدر بولارد. إن وزير بريطانيا السابق في جدة، ثم سفيرها في طهران، مستشرق متميز، قضى فترة طويلة من مشواره الدبلوماسي في الشرق الأوسط. لقد كان أسفاً كل الأسف للتطورات العنيفة، التي شهدتها قضية البريمي، وما كان لها من نتائج سيئة على العلاقات الطيبة بين السعودية وبريطانيا، تلك العلاقات التي كان يفتخر بأنه أحد مهندسيها. ويبدو لي أن مفهوم التحكيم كان خاطئاً منذ البداية، عندما سُمح للممثل السعودي، نائب وزير خارجية المملكة، بأن يكون الخصم والحكم. إن فشل [١٩٦٦] التحكيم في قضية البريمي يوضح جلياً مدى الصعوبة التي نواجهها، عندما نحاول فرض مفاهيم غربية، هي نتيجة تطور طويل الأمد، على شعوب شرقية، عرفت تطوراً مختلفاً. وسنرى كيف سيكون لهذا نتائج أخرى.

## القوة، حل مؤقت

في ٢٦ أكتوبر «تشرين الأول» ١٩٥٥م، أعلن السير أنطوني إيدن Anthony Eden، رئيس مجلس الوزراء البريطاني، أمام مجلس العموم، أن ميليشيات ساحل القراصنة، (ساحل عُمان المتصالح Trucial Oman Scouts)، احتلت واحة البريمي، وطردت القوات السعودية منها. وأضاف قائلاً: «لم يكن أمامنا، بعد أن أخفقت

مفاوضات التحكيم، إلا اللجوء للقوة للإيفاء بتعهداتنا، ودعم أصدقائنا». وفي اليوم التالي، أعلنت وزارة الخارجية البريطانية عن أسر ٢٥ جندياً سعودياً في أثناء احتلال الواحة؛ سلّموا لبلادهم في وقت لاحق. كما ذكرت أنها عثرت على عدد من الوثائق. وعلى الفور احتجت المملكة العربية السعودية بشدة «ضد العدوان البريطاني المسلح، والاحتلال العسكري المسلح لواحة البريمي» في سلسلة من البيانات، التي نُشرت في وقت واحد في لندن، وفي الأمم المتحدة في نيويورك، وفي باريس. وأشار بيان باريس على وجه الخصوص، إلى أن العربية السعودية لا تعترف بأي من الامتيازات الممنوحة، أو التي ستمنح، لأي كان في البريمي بدون موافقتها.

أما العلاقات السعودية البريطانية، التي شهدت تراجعاً مستمراً منذ توقيع حلف بغداد، فهي اليوم متوترة توتراً شديداً. وانتظر العالم أن تقطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، ولكن ذلك لم يحدث، على الرغم من استدعاء السفير السعودي من لندن. وظلت العلاقات خلال عدة أشهر متوترة.

وفي ١٤ نوفمبر «تشرين الثاني» ١٩٥٥م، رفضت الحكومة البريطانية رفضاً قاطعاً عرضاً تقدمت به السعودية في ٩ نوفمبر «تشرين الثاني»، يقترح العودة إلى عملية التحكيم من النقطة التي توقفت عندها؛ وأكدت في جوابها أن الفساد، والتهديد، وصلاً إلى حد لا يطاق منذ ثلاث سنوات. وأشار [١٩٧] البيان البريطاني إلى أن العملية، التي قامت بها في ٢٦ أكتوبر «تشرين الأول»، القوات المحلية، لم يكن لها إلا هدف واحد، وهو العودة إلى وضع سابق شرعي، اختل بسبب احتلال القوات السعودية واحة البريمي، عام ١٩٥٢م، وهو احتلال غير قانوني، يتعارض تعارضاً صريحاً مع الاتفاقات السابقة (وخصوصاً المادة ٦ من معاهدة جدة). إن التوتر المستمر، الذي يشهده الوضع العام في الشرق الأوسط، مرتبط، بلا شك، بالمواقف المتصلبة للبلدين. وقد بلغ الغضب السعودي ذروته، في ١٥ ديسمبر «كانون الأول»، عندما أجبرت القوة إمام نزوى على الهرب، وتدعمت بذلك سلطة أصدقاء بريطانيا.

وفي نهاية ديسمبر «كانون الأول» ١٩٥٥م، اجتمع السلطان سعيد بن تيمور، حاكم مسقط وعمان، في قرية البريمي بنظيره حاكم أبو ظبي، الشيخ شخبوط بن سلطان، للتوقيع على اتفاق تاريخي حول اقتسام السيادة في واحة البريمي، بمباركة مريدي لورانس العرب.

على الرغم من صمت استمر عدة أشهر، أدى ضغط الولايات المتحدة الأمريكية، القلقة، والمستاءة من التطور الذي شهدته القضية، إلى استئناف الجهود الدبلوماسية.

وقد كانت قضية البريمي على رأس الموضوعات التي ناقشها السير أنطوني إيدن خلال زيارته واشنطن في فبراير «شباط» ١٩٥٦م. وقد حاولت وزارة الخارجية الأمريكية، عبثاً، إقناع البريطانيين بالعودة إلى التحكيم من جديد. أما السعوديون، الذين بدؤوا يظهرن مخاوفهم من تطور الأوضاع، فقد طلبوا تدخل الرئيس إيزنهاور، ولكن محادثات إيزنهاور-إيدن، لم تفض مباشرة إلى الحل المطلوب. واضطرت وزارتا الخارجية في أمريكا وبريطانيا على الاعتراف بأن هناك تبايناً في وجهات النظر بشأن قضية البريمي.

إن البريطانيين، الذين كانوا سعداء كل السعادة لأنهم وجدوا أدلة على تجارة الرقيق والسلاح، وعلى انتشار الفساد على نطاق واسع، أبدوا في المسألة تصلباً كلياً، ولكن ممثلهم الدبلوماسيين، تلقوا في الوقت نفسه تعليمات بوجوب المحافظة على شعرة معاوية مع السعوديين. وفي ٢٦ أبريل «نيسان» ١٩٥٦م، أعلنت وزارة الخارجية البريطانية بيان مقتضب، استئناف العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا والسعودية. وفي ٢ مايو «أيار» التالي، علمنا [١٩٨] أن السفير البريطاني في جدة، بدأ محادثات، بهدف إعادة العلاقات الودية التقليدية بين البلدين. ولكن هذه المحادثات، لم تفض إلى أي نتيجة إيجابية، لأن الأزمة التي أحدثها جمال عبد الناصر قطعت الطريق أمام أي تفاهم سلمي بين العرب وبريطانيا.

## بريطانيا تحت التجربة

ليس هناك من شك في أن الضغط الأمريكي على الجانبين، أدى دوراً فاعلاً في استئناف العلاقات بينهما. لقد كانت الولايات المتحدة تخشى كل الخشية تدويل نزاع تجد نفسها فيه مضطرة إلى دعم وجهة النظر السعودية. إن تقويم أمريكا، الكلي والموضوعي للسياسة العربية-التي رأينا نتائجها الرائعة-جعلها تُصنَّف آلياً في الصف المعادي لبريطانيا. فقبل ثلاثة أشهر من العدوان المفاجئ على السويس، أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أنها مازالت تعد جمال عبد الناصر «عنصر استقرار» في الشرق الأوسط. ويبدو أن وزير الخارجية الأمريكية، السيد دالس Dulles، قد خُذع بتقارير سفير بلاده في القاهرة، السيد بايورد Byroade، وبنى استراتيجيته على أساس حسن نية الجنرال المصري، الذي ينبغي، كما يتوهمون، انتزاعه من الإغراءات السوفيتية الخادعة.

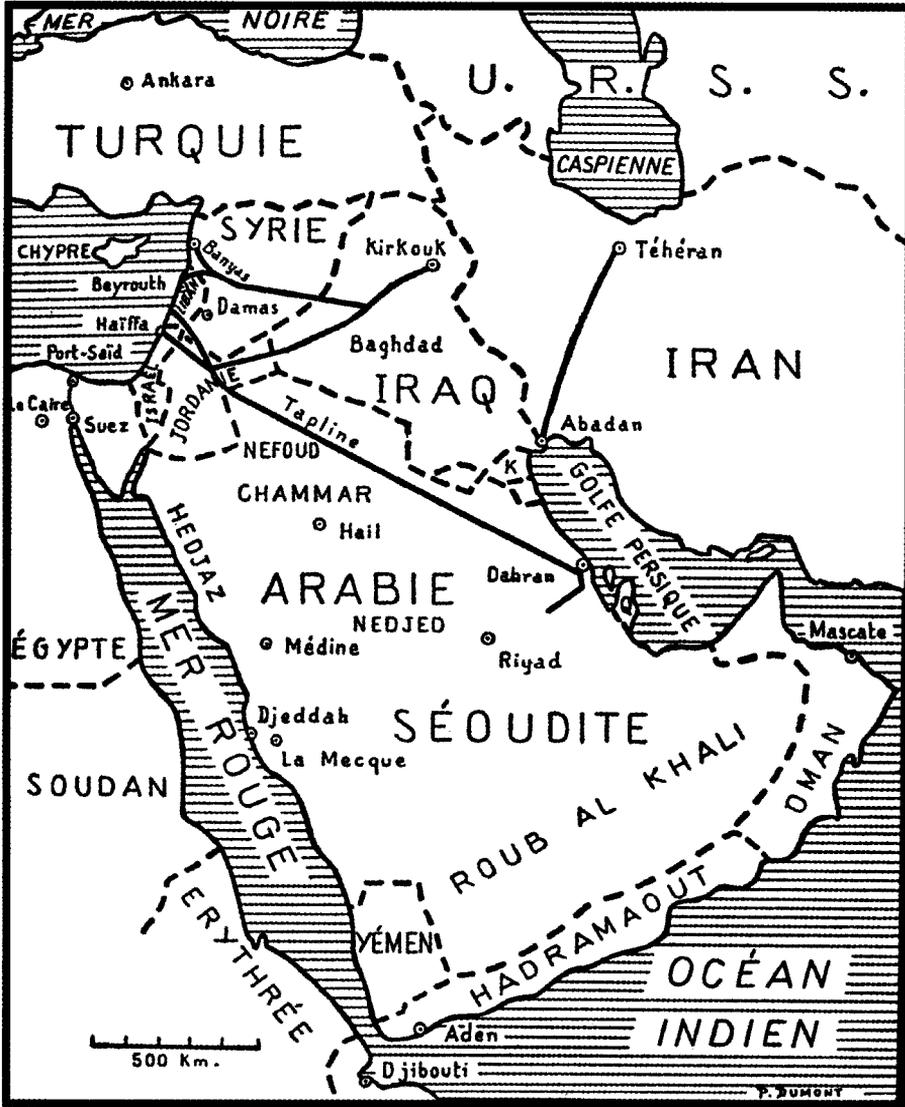
إن الولايات المتحدة الأمريكية، تحملت المناورات الناصرية طويلاً، وعندما ظنت أنها سيدة الموقف، سحبت فجأة عرضها لتمويل بناء سد أسوان. وبعد مضي أسبوع على ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية، أجاب عبد الناصر، عندما سئل عن ذلك، في ٢٦ يوليو «تموز»، وهو يضحك ملء شذقيه، بأنه سيؤمم قناة السويس. وأعلنت المملكة العربية السعودية فوراً دعمها للخطوة المصرية المباركة.

كان تأميم قناة السويس منطلقاً لسلسلة من الأحداث المؤثرة، التي حولت الأنظار لفترة طويلة عن مشكلات الشرق الأوسط كلها. وعُلقت مشكلة البريمي. ثم جاء العدوان الثلاثي على مصر، في نوفمبر «تشرين الثاني» ١٩٥٦م، ليجمدها. وكان من نتائج ذلك العدوان قطع العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا والسعودية، وبداية [١٩٩] عهد جديد من العلاقات العربية البريطانية.

إن التحدي الكبير، الذي أعلنه عبد الناصر في وجه القوى العظمى الغربية، وفشل محاولات فض الخلاف كلها، وأخيراً العدوان الفاشل على بورسعيد، كل ذلك، جعل حرب السويس ثورة أحس بها العرب أكثر من الأوروبيين. ومع ذلك، فإنه يبدو لي أن العرب لم يحسنوا تقدير الإصرار البريطاني على البقاء في الخليج العربي. ففي عام ١٩٥٨م، كانت بريطانيا، كما هي الحال في بداية القرن، تعد أن أي محاولة لإخراجها من الخليج العربي يهدد أكثر مصالحها أهمية. وهي مستعدة، كي تحمي مصالحها البترولية، للمخاطرة بكل شيء، ولشن حرب مهما كانت النتائج، لأن قطع البترول يعني تهديد وجودها.

لقد كانت بريطانيا، في الوقت نفسه، في مأزق، كان يزداد خطراً يوماً بعد يوم. إنها، بسبب تعهداتها القديمة، وفي مقابل الانفراد بالعلاقات والامتيازات، مضطرة لحماية استقلال إمارات صغيرة استبدادية، تتجاوزها وعي مواطنيها، الذين فتحوا عيونهم على ما حولهم. وتخشى بريطانيا أن يعجل أي تهاون في الدعم البريطاني، في أي منطقة من مناطق الخليج العربي، بانهيار نظام قائم على بعض المخلصين للصدقة البريطانية. ولكي تحفظ بسيطرتها على بترول الخليج، وعلى الأموال الطائلة التي تجنيها، تجد بريطانيا نفسها غير مرة ملزمة باستخدام السلاح للدفاع عن القضايا، العادلة أو غير العادلة، للمتهورين الذين تحميهم.

هل هي الطريقة المثلى لذلك؟ تراودنا الشكوك في بعض الأحيان. إن وزارة الخارجية البريطانية حزمت أمرها نهائياً، وأخذت على عاتقها حماية إمارات الخليج العربية كلها، دون اعتبار لمساحتها، ولإنتاجها من البترول، ولقابليتها في الاستمرار. لم يبق للقوة، الوصية على هذه البلاد، التي لا حدود فيها، والتي أفسدها البترول، إلا أن تدافع عن المصالح المشتركة للأمرء وللشركات البترولية. ولكنها عندما تفعل ذلك، تغمض عيونها عن حقيقة أن الزمن قد تغير، حتى في الخليج العربي.



الشكل ٣. إمارات الجزيرة العربية في الجنوب - الشرقي  
 (قطر، ساحل القراصنة، عمان، مسقط)

## [٢٠٠] الفصل الرابع عشر

### ساحل القراصنة<sup>(١)</sup> - ساحل البترول

إن المنطقة الساحلية للجزيرة العربية، الممتدة من شبه جزيرة مسندم في مدخل الخليج العربي، وحتى شبه جزيرة قطر في وسطه، تسمى ساحل القراصنة. ويطلق عليه البريطانيون اسم الساحل المتصالح، أو ساحل عمان المتصالح. وفيما وراء قطر، تقع الأحساء والكويت، اللتين تضمّان أضخم آبار البترول في العالم. إن الساحل العربي من الخليج، مقسوم سياسياً بين العربية السعودية في الأحساء، وحوالي عشر إمارات يحميها العرش البريطاني. وتدين هذه الإمارات، المتفاوتة في مساحتها، بالمحافظة على استقلالها للمنافسة البريطانية الأمريكية على البترول. إن «إمارات» الخليج العربي، كما تُسمى في بعض الأحيان، لا تمثل مع ذلك، لا مجتمعة، ولا منفردة، كياناً سياسياً يشبه محمية عدن، مع أن الوضع متماثل في الحالتين جميعاً.

تمتلك الحكومة البريطانية في العربية الجنوبية، بموجب وثيقة الحماية، سلطة سن القوانين والإدارة. «إن سلطة التشريع»، التي تمتلكها بريطانيا تتوافق مع تعريفها للحماية. في حين أن إمارات الخليج العربي تُسمى في النصوص الرسمية «دولاً ذات سيادة، ترتبط بمعاهدات خاصة مع الحكومة البريطانية»؛ إنها «دول تحت الحماية»، وهي حالة تتفق مع التعريف التالي: «بلد خاضع لحاكم محلي، يتمتع بحماية بريطانيا، التي تشرف على سياسته الخارجية، ولا تتدخل في شؤونه» [٢٠١]. الداخلية<sup>(٢)</sup>. ويتضح في التطبيق العملي للحماية الفرق بين محمية من النمط الاستعماري، مثل محمية عدن، وبين «الدول المحمية»، مثل إمارات الخليج العربي، إذ إن الأولى تابعة لوزارة المستعمرات، في حين أن الثانية مرتبطة بوزارة الخارجية.

(١) انظر تعليقنا في ص ٤٥ .

(٢) انظر حوليات الإمبراطورية والكونولث، ١٩٥٣-١٩٥٤م، نيومان نايم ليتد Newman Neame Ltd،

لندن-العربية الشرقية: إمارات الخليج العربي، التوثيق الفرنسي، باريس، ١٩٥٦م، رقم ٢٢٩، ٢ .

وإن نظام الدول المحمية يشمل مشيخات ساحل القراصنة السبع، وقطر، وأرخبيل الجزر البحرينية، والكويت. وترتبط بريطانيا مع هذه الدول كلها بمعاهدات تخولها الإشراف التام على شؤونها الخارجية، ثم أُضيف إلى ذلك من بعد أن هذه الدول تلتزم بعدم منح أي امتياز بترولي دون موافقة بريطانيا. وقد كان ابن سعود قد اعترف لبريطانيا بهذه الوضعية المتميزة، حسب المادة السادسة من اتفاقية جدة في ٢٠ مايو «أيار» ١٩٢٧م، ولم يختل هذا الاتفاق إلا في الآونة الأخيرة. تاريخياً، كان استقرار أول مقيم بريطاني في مسقط، أحد الأسباب التي سمحت للحكومة البريطانية بالاستثمار بالنفوذ في هذه المنطقة الحساسة من العالم. إن محاربة القرصنة، والاتجار بالرقيق، الذي حرمه القانون البريطاني منذ بداية القرن التاسع عشر، أديا في عام ١٨٢٠م إلى توقيع سلسلة أولى من اتفاقيات الهدنة بين زعماء ساحل القراصنة وشركة الهند الشرقية. ثم تبع ذلك وأكمله في عام ١٨٥٣م، التوقيع على «معاهدة السلام الدائم»، التي افتتحت عصر الهيمنة البريطانية المطلقة في الخليج العربي، التي مضى عليها قرن من الزمن. هذه المعاهدة، هي التي أعطت لساحل القراصنة، اسمه الإنجليزي الجديد؛ الساحل المتصالح (Trucial Coast).

## ساحل القراصنة

لم يستطع البريطانيون بالطبع الحصول على نتائج فورية، وبلا صعوبة، في مجال القضاء على القرصنة في الخليج العربي. وإن أفضل الاتفاقيات لن يكون لها قدرة سحرية على تغيير الطبائع الأزلية للبشر فجأة. لقد كانت منطقة الخليج كلها منذ القدم ملجأً خطراً [٢٠٣] لمغامري البحر. ولكن مراكبهم الصغيرة، ذات الكوائل المرتفعة، لم تكن تستطيع أن تسبق السفن البخارية الحديثة. وشيئاً فشيئاً أدت المراقبة التي مارسها الأسطول الملكي البريطاني، وزوال السفن الشراعية، إلى اختفاء آخر القراصنة. ولم تكن أعمال التهريب، ونقل الأسلحة، والاتجار بالرقيق إلا بدائل

مخجلة، لجأ إليها لصوص البحار الحقيقيين، الذين لم يختفوا نهائياً.

إن الوثائق التي حصلت عليها القوات البريطانية عندما احتلت واحة البريمي، تتحدث عن القيام بثلاث «حملات» للتجار بالرقيق خلال ثمانية عشر شهراً باتجاه المملكة العربية السعودية. ويمكننا أن نفترض وجود حملات أخرى. والأمر نفسه بالنسبة إلى السلاح، الذي كان أتباع الإمام غالب، وزعيم الثائرين طالب، يستخدمونه إبان الثورة الأخيرة في عمان، الذي يبدو أنه نُقل عبر ميناء دبي، أفضل ميناء على الساحل.

يسيطر الشيوخ السبعة، الذين تحمل أراضيهم اسم ساحل القراصنة، سيادتهم على مساحات متفاوتة من الصحراء المقفرة، التي تنتشر فيها السبخ الملحية. ولا يمكن تقدير مساحتها العامة إلا على وجه التقريب، وهي بين ٢٠ و ٨٠ ألف كم مربع، حسب تقسيم الأراضي الرملية، والسبخ الملحية، التي يمكن ضمها للساحل المتعرج. وتكاد الحياة تتركز في القرى الساحلية وحدها، وفي واحة البريمي. ويقدر عدد السكان بـ ٨٠ ألف نسمة، ٣٠ منهم يسكنون الدولة القائمة في مدينة دبي، وهي ميناء رئيسي، ومقر المقيم البريطاني. إن فقر هذه المنطقة مقارنة مع الأراضي البترولية المجاورة، يدفع سكان ساحل القراصنة إلى مغادرة أوطانهم، ولو مؤقتاً، للعمل في البحرين، أو في قطر، أو في الكويت. ويقدر عدد بدو الداخل اليوم بما يقارب ١٢ ألفاً.

وهناك أربع إمارات ساحلية، ليست سوى قرى ساحلية: عجمان، أم القوين، ورأس الخيمة، والفجيرة؛ أما الثلاث الأخرى فهي: دبي، أكبر المدن وأهم الموانئ، والشارقة التي تتبعها كلبا، وفيها قاعدة جوية للقوات الملكية الجوية البريطانية، وأبوظبي، التي هي أكبر مساحة من الإمارات مجتمعة. وسواء كانت الإمارات المذكورة صغيرة أو كبيرة، فإنها حريصة كل الحرص على [٢٠٤] استقلالها التام. وقد تصاعدت منذ سنوات النزاعات المستمرة بينها، بسبب وسواس البترول، ويقضي الممثلون البريطانيون معظم أوقاتهم في تهدئة النزاعات التي لا طائل من ورائها. وإن

محاولات الاتحاد السرية، التي بدأت منذ عام ١٩٤٥م باجتماع الشيوخ في البريمي، أفضت إلى الاتفاق على عقد لقاءات نصف سنوية تقريباً، في نطاق ما سُمي «مجلس الأمراء»، الذي يشرف عليه المندوب البريطاني. ويقود قوات ساحل القراصنة العسكرية، المقدم إيريك ف. جونسون Eric F. Johnson، يساعده اثنان وعشرون ضابطاً أرسلتهم القوات البريطانية، وهم ينشرون السلام البريطاني، وقد رأينا الدور الذي أدوه في قضية البريمي.

## الصراع من أجل الحياة والامتيازات

إن هذا الساحل المتعرج، ذا الأعماق السحيقة، الذي تملؤه الأرصفة المرجانية، والجزر الصغيرة. وذلك الداخل المسطح من الكثبان والسبخ، حزام الأرض الممتد بين خليج عُمان وقطر، هو أول ميدان لصراع عنيف بين الإنسان وعناصر الطبيعة. فبحارة كل الأزمنة، يبنون على الساحل مراكبهم التي تتراقص على صفحة الماء في موسم الصيد، صيد اللؤلؤ، أو الأسماك؛ وتقضي الزوارق الصغيرة بعض المرات الليل كله تحت جَوْجُو سفن الدوريات البحرية البريطانية، لتُفرغ بلا ضجة، في خليج صغير، حمولتها المهربة بعيداً عن أعين الرقباء. وفي الداخل، وفيما عدا بعض موارد المياه المالحة النادرة، التي تنمو فيها بعض أشجار نخيل التمر، تتركز الحياة الزراعية الحضرية في واحة البريمي. ومنذ احتلالها عام ١٩٥٥م، استفادت الواحة من المساعدات المالية البريطانية، ومن المساعدة المخصصة لتحسين الإنتاج. ويُعدُّ ترميم قنوات الري الضرورية، وتقديم مضخات المياه، وافتتاح مستوصف، من أهم منجزات الإدارة الجديدة.

إن رأس الخيمة، آخر الإمارات في أقصى الشرق، والأقل قحطاً، هي موضع اهتمام خاص لتطوير الزراعة فيها. لقد وضعت بريطانيا خطة خمسية لتطوير المنطقة، تقدر تكاليفها بـ ٥٠٠ ألف جنيه إسترليني. [٢٠٥]

وإذا كان أحفاد القراصنة القدماء قد ظلوا في الأعم الأغلب صيادين، وغطاسي لؤلؤ، فذلك لأن أرضهم القاحلة لا تصلح إلا للتنقيب عن البترول. وقد كانت نتائج التنقيب المستمر منذ بضع سنوات مخيبة للآمال: آبار جافة، زيوت ثقيلة جداً، غاز خطر. وما زال الحفر، والسبر الزلزالي والجادبي، مستمراً في عدد من الأماكن، سواء على اليابسة أو تحت مياه الخليج. تمتلك شركة بترول يوم ديفلوبمنت (الساحل المتصالح) ليمتد Petroleum Development (Trucial Coast) Limited، وهي فرع من مجموعة شركات العراق بترول يوم، التي قامت بقسم كبير من أعمال التنقيب في أبوظبي. أما امتيازات قعر البحر، فتمتلكها شركات مختلفة. لقد طالب عدد من الدول، منذ تصريح ترومان Truman في عام ١٩٤٥م، بسيادته على «الهضبة القارية»، التي تتسم قضية وجودها بالغموض<sup>(١)</sup>. ومنذ عام ١٩٤٩م، أعلنت الإمارات المختلفة على الخليج سيادتها على قاع البحر الواقع بين سواحلها وخط وسطي وهمي يقسم الخليج. ثم فتح الأمراء باب المزاد عليها. فمُنح في بادئ الأمر امتياز قاع البحر التابع لأبوظبي-باستثناء المياه الإقليمية- لشركة سبريور أويل Superior Oil Company، بالاشتراك مع أنترناشيونال مارين أويل International Marine Oil Company، وأمام احتجاج شركة بترول يوم ديفلوبمنت، شركاء العراق بترول يوم، اجتمعت لجنة تحكيم دولية في باريس، في يوليو «تموز» ١٩٥١م لدراسة مدى صلاحية الامتياز الجديد. ومع ذلك فإن شركة أنترناشيونال مارين، التي لم تتقدم في أعمال التنقيب كثيراً، تخلت عن حقوقها في عام ١٩٥٢م. وحصلت على الامتياز منذ مارس «آذار» ١٩٥٣م شركة دارسي (B. P.).

---

(١) إن مفهوم الهضبة أو النجد القاري Plateau ou socle continentale، مفهوم ثوري في القانون الدولي، وقد كان منذ زمن موضوعاً لمزاعم هي في الحق متوهمة، وتهدد الحرية التقليدية في أعالي البحار. وهي في الخليج العربي موضع نزاع بين إيران والجزيرة العربية، وهي خيالية تماماً. وقد كان اللجوء إلى هذا المفهوم ضرورياً لمحاولة التحديد التقريبي للملكية الآبار البترولية التي يحتمل اكتشافها في مياه الخليج القليلة العمق.

إيكسبلوريشين D'Arcy (B. P.) Exploration company، وهي فرع من شركة بريتيش بتروليوم British Petroleum Company (التي كانت تسمى سابقاً أنجلو-إيرانيان أويل ex Anglo-Iranian Oil Company)، بالاشتراك مع لا فرانسيز دي بترول La Française des Pétroles بحصة الثلث. ومنذ بداية عام ١٩٥٤م بدأ [٢٠٦] جيولوجيو شركة دارسي إيكسبلوريشين دراساتهم، وتلاها في عام ١٩٥٥م السبر الزلزالي.

وفي بداية عام ١٩٥٨، بدأت أولى أعمال الحفر في المياه حول جزيرة داس. ومنح شيخ دبي، الذي تأتي إمارته في المرتبة الثانية بين إمارات ساحل القراصنة من حيث الأهمية، امتيازاً في قاع البحر لمدة سبعين عاماً لشركة مؤلفة في ثلثي أسهمها من شركة بريتيش بتروليوم، والثلث الباقي لشركة لا فرانسيز دي بترول. وهنا أيضاً بدأ السبر الجيوفيزيائي.

## الانفرادية البريطانية

تدر الامتيازات البترولية اليوم حوالي ١٧٥ مليون فرنك فرنسي على ساحل القراصنة، ٨٠٪ منها تذهب إلى إمارة أبوظبي. إن هذه المبالغ بسيطة مقارنة بالمليارات، التي تنهال بالئات في خزائن الكويت والمملكة العربية السعودية. ولكن، حتى لو لم يُعثر على البترول مطلقاً في ساحل القراصنة، فإنه ينبغي على بريطانيا تطويره وحمايته، بالقدر نفسه، إن لم يكن أكثر مما جرى في إمارات قطر، والبحرين، والكويت، الأكثر غنى. ساحل القراصنة بلا بترول، هو الثمن الذي تدفعه بريطانيا للمحافظة على سيطرتها على ساحل البترول. وقد أظهرت بريطانيا في مشكلتي البريمي وعمان، ما يكفي من الحزم لتثبت أن الحكومة البريطانية ترى أن مشكلات الخليج كلها كل لا يتجزأ.

تنوي بريطانيا أيضاً احترام تعهداتها بدقة تجاه الأمراء العرب، الذين تحميمهم لكي لا تبوء بغضب أولئك الذين تجني من ورائهم أرباحاً هائلة، وتجعلهم حذرين منها. وهي مضطرة بسبب هذا الموقف العام أن تحافظ على زعماء هذه الدول «الصغيرة»، وأن تساندهم، لأن أجدادهم وضعوا مصيرهم بين يدي التاج البريطاني. وآية ذلك أن شيوخ الساحل وقعوا في مارس «آذار» ١٨٩٢م «اتفاقيات حصرية»، كتلك التي وقعها زعماء محمية عدن. وقد تعهد بموجب هذه الاتفاقيات [٢٠٧] كل واحد من الشيوخ ألا يقيم علاقة مع أي قوة أخرى عدا بريطانيا دون موافقتها على ذلك؛ ناهيك عن أنهم تعهدوا أيضاً ألا يتنازلوا عن أي قسم من أراضيهم لأي حكومة أخرى عدا الحكومة البريطانية؛ وتعهدوا أخيراً بإسناد مهمة علاقاتهم الخارجية، بما في ذلك علاقاتهم مع شيوخ الساحل الآخرين، إلى بريطانيا. أما الاتفاقيات اللاحقة، التي وقّعت عامي ١٩١١ و ١٩١٢م، فقد وسعت الحصرية البريطانية لتشمل امتيازات اللؤلؤ والبتروول. ويشرف بموجب هذه الاتفاقيات المبرمة لأجل غير مسمى، مقيم سياسي بريطاني على العلاقات الخارجية لساحل القراصنة، بينما يحتفظ الشيوخ بكل سلطاتهم في الداخل. يحكمون حكماً مطلقاً، ولكنهم مطالبون بمنع القرصنة، والاتجار بالرقيق، وعموماً كل ما يمكن أن يعكر صفو الأمن في البحر.

إن بريطانيا، وعلى الأصح، ممثليها المحليين، ومنذ أن حطوا رحالهم في ساحل القراصنة، وفي محمية عدن، يظهرون للزوار الأجانب في المنطقة عداء مرصياً. لا يمكن لأجنبي أن يتجول على سواحل الخليج إلا بموافقة البريطانيين، وهو واحد من اثنين، إما ممن ينقبون عن البتروول، وإما أنه موظف أو ضابط بريطاني. إن هذه المراقبة الشديدة لا تمنع الأفكار والعادات الجديدة من أن تتسلل، وتنتشر، وأن تأكل كالأرضة الهياكل القديمة لحياة الصحراء. ويبدو لي أن كثيراً من البريطانيين فهموا ذلك، وهذا أمر سار؛ ولكنه ما يزال هناك في لندن والخليج، حفنة من المتشبهين بلورنس، لم يلحظوا من تحت كوفياتهم، التي يحرصون على نظافتها، ما حصل من تطور في

المنطقة منذ عشر سنوات، ولا مشاعر القومية العربية المتصاعدة. ليس عليهم إلا أن ينظروا حولهم في الخليج العربي، ليفهموا أن الحصرية البريطانية أصبحت من مخلفات الماضي.

## قطر

قطر هي إمارة أخرى من الإمارات الصحراوية [٢٠٨]، التي تنفرد بريطانيا فيها بحقوق مميزة؛ إلا أن إنتاج البترول هنا، كما هي الحال في البحرين والكويت، يقلب المعطيات القديمة كلها رأساً على عقب. تتسارع الأحداث في هذه الإمارات البترولية كلها، مما يمنح أهمية قصوى لمحاولة وصف لحظة، لن يكون لها قريباً وجود في حركة التطور المتسارعة.

تغطي إمارة قطر بالتحديد شبه الجزيرة الناتئة، التي تقسم الخليج العربي إلى قسمين. وقد نظن أن تكوينها الطبيعي يقلل من أخطار النزاعات حول السيادة عليها، ولكن الأمر ليس كذلك؛ فحدودها الداخلية لم تُرسم أبداً، وهي في نزاع مستمر، تارة مع إمارة أبوظبي، وطوراً مع المملكة العربية السعودية، من أجل ترسيم تلك الحدود. إن مساحة شبه جزيرة قطر ٢٠ ألف كم مربع هي امتداد صحراوي منبسطة كل الانبساط، محرق ومجذب، يحيط بها ساحل متعرج، مليء بالأرصفة المرجانية. ولا مجال هنا للحديث عن تطوير الزراعة: هناك بعض الآبار، ماؤها قليل ومالح، يسقي بعض واحات أشجار النخيل، التي تشكل ملجأ للبدو. وليس هناك ما يبدد وحشة هذه الصحراء سوى الطرقات الحديثة، التي تربط بين المناطق البترولية وميناء أم سعيد، والدوحة العاصمة.

كان عدد السكان، في عام ١٩٥٤م، ٢٥ ألف نسمة، ولكنه تضاعف منذ ذلك الحين، لأن قسماً من سكان ساحل القراصنة، يجتذبه حتماً الازدهار الذي تشهده شبه الجزيرة المجاورة. ويوجد إلى جانب استثمار البترول عدد من المهن التابعة لذلك،

وتطويرها يساعد أعداداً متزايدة من القطريين على كسب عيشهم، وهم الذين كانوا يحصلون على ذلك من الصيد، أو صناعة اللؤلؤ، أو تربية المواشي. ومن الأعمال المزدهرة اليوم، مجال البناء، وقطاع النقل بالسيارات. لقد سارت قطر على طريق التحديث بعد شيء من التردد، ولكن مواردها التي تزداد دائماً، فرضت عليها الاقتداء بجاراتها من الإمارات المنتجة للبترو. ولا يفيد الجميع بنسبة واحدة من الثروات بدهامة. إن أكبر أغنياء المنطقة جنى ثروته من الاحتكار التام في المجالات المختلفة: إنه عبد الله درويش [٢٠٩] «رجل الخمسين كاديلاك»، وهو في الاتجاهين همزة الوصل بين شيخ قطر وشركات البترول؛ إنه «السيد الكبير» في هذا اللسان الصحراوي، المتغلغل في البحر، الذي لا فائدة أخرى تُرجى منه، إلا البترول.

## البترو

كان امتياز بترول قطر، الذي يشمل أرض الإمارة كلها، خلال فترة من الزمن ممنوحاً لشركة الأنجلو- إيرانيان أويل، ثم تحول إلى بتروليوم ديفلوبمنت قطر، وهي فرع من شركة العراق بتروليوم، التي أصبح اسمها منذ ذلك الوقت شركة قطر بتروليوم (Q. P. C.) كان الامتياز يبدأ في عام ١٩٣٥م، ولمدة ٧٥ سنة، تنتهي عام ٢٠١٠م. وأفضت التنقيبات التي بدأت عام ١٩٣٧م إلى نتائج إيجابية منذ عام ١٩٣٩: إذ عُثر في الساحل الغربي من شبه جزيرة قطر، في مواجهة البحرين، في منطقة دخان، الكثيرة السبخ، على بئر صالح للاستثمار. ولكن الحرب العالمية الثانية أوقفت التنقيبات، واضطرت الشركة إلى إقفال الآبار الأولى التي حفرتها. وأفضى استئناف الأعمال في عام ١٩٤٧م، إلى إنتاج تجاري متزايد منذ عام ١٩٤٩م. وفي فترة وجيزة، مُدَّت الأنابيب، وبنيت مستودعات التخزين، وأحدثت مرافئ التعبئة والشحن، والمدن البترولية لسكن العمال. وهذه لائحة بالإنتاج الخام، مقدراً بالطن المتري:

٩٦,٠٠٠	١٩٤٩
١,٦٣٢,٠٠٠	١٩٥٠
٢,٣٦٩,٠٠٠	١٩٥١
٣,٢٩٧,٠٠٠	١٩٥٢
٤,٠٦٢,٠٠٠	١٩٥٣
٤,٧٧٨,٠٠٠	١٩٥٤
٥,٤٣٨,٠٠٠	١٩٥٥
٥,٨٧٦,٠٠٠	١٩٥٦
٦,٦٤٨,٠٠٠	١٩٥٧

وعلى الرغم من تأثير الإنتاج خلال بضعة أشهر بسبب إغلاق قناة السويس في عام ١٩٥٦م، [٢١٠] فإنه عاد إلى الارتفاع، حتى تجاوز خلال عام ١٩٥٧م، الستة ملايين طن. وإذا استمرت الحال على هذا، فإن المخزون البترولي المعروف في شبه الجزيرة سينفذ بسرعة. ولم تُكتشف آبار جديدة في قطر منذ أن تم العثور على بئر دخان. ويبلغ الاحتياطي القطري حسب تقديرات عام ١٩٥٣م ملياراً ومائتي مليون برميل، تشكل نسبة ١٪ من الاحتياط الكلي المقدر في العالم غير الشيوعي<sup>(١)</sup>.

ويأمل القطريون أن يتم اكتشاف البترول تحت مياه الخليج العربي. وكانت قطر أولى الإمارات التي منحت، في عام ١٩٤٩م، امتيازاً للتنقيب في قاع الخليج، على «الهضبة القارية» لشركة أخرى، غير تلك التي تمتلك امتيازها البري؛ ونتج عن ذلك

---

(١) الأرقام الموجودة في هذه الفقرة مأخوذة من أعداد مختلفة من مجلة بتروليوم برس سيرفيس Petroleum Press Service، وهي عموماً تزيد قليلاً على الأرقام التي تذكرها الشركات بخصوص الإنتاج، ولكنني فضلته لأنها هي الأرقام التي يجدها القارئ غالباً.

خلاف بين شيخ قطر وشركة العراق بتروليوم، حسمته لجنة تحكيم دولية، اجتمعت في الدوحة في يناير «كانون الثاني» ١٩٥٠م، لصالح الشيخ. وحصلت بذلك شركة شل أوفرسييز إكسبلورينج Shell Overseas Exploring Company، التابعة لمجموعة شركات رويال دوتش-شل Royal Dutch-Shell منذ عام ١٩٥٢م، على الامتياز البحري، الذي كانت في البدء تملكه شركة سبيرير أويل Superior Oil Company.

وبدأت شركة شل في عام ١٩٥٤م الحفر في الخليج الصغير الذي تقع عليه الدوحة، بمساعدة جزيرة اصطناعية عائمة، فريدة من نوعها في العالم. وأنفقت على هذا العمل مئات الملايين، التي ذهبت هباء بسبب عاصفة من عواصف الخليج غير المنتظرة هبت في ديسمبر «كانون الأول» ١٩٥٦م، وخربت أدوات الحفر كلها؛ وكانت قد كلفت ملياراً من الفرنكات، وستين من العمل. وعلى الرغم من ذلك، أعلنت شركة شل، في بداية فبراير «شباط» ١٩٥٧م، تصميمها على العودة إلى أعمال السبر من جديد في مكان آخر، واستئجار رصيف عائم للحفر من شركة أخرى. ويدل هذا الإصرار على وجود آمال باكتشاف آبار بترولية هامة على الهضبة القارية. [٢١١] إن مورد قطر الرئيسي هو العائدات البترولية؛ ويخصص شيخها قسماً كبيراً منها، لتحسين مستوى حياة رعاياه، الذين يبلغ عددهم بضعة آلاف. ومنذ عام ١٩٥٢م وقع شيخ قطر اتفاقاً جديداً لتقاسم الأرباح، مناصفة بينه وبين الشركة، مما جعل عائداته تصل إلى ما يقارب ١٥ مليون دولار في عام ١٩٥٥م.

إن الدوحة، ذات البيوت الطينية، عاصمة الإمارة الصحراوية، في طريقها لأن تصبح مدينة حديثة، شوارعها مرصوفة الشوارع، مضاءة بالكهرباء ومياه البحر المحلاة، العذبة، تسيل من الصنابير في منازلها.

شيء واحد لم يتغير بعد في قطر، إنه نظام الحكم المطلق، الذي يحكم بموجبه الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم آل ثاني، الذي خلف والده في عام ١٩٤٩م.

ويساعده ولده أحمد. وهناك مستشار بريطاني، هو السيد هانكوك Hancock، يعاون الأمير في تصريف شؤون البلاد الداخلية، على رأس ثمانية من كبار الموظفين البريطانيين. أما شؤون الخارجية والدفاع، فهي في يدي وزارة الخارجية البريطانية، عبر المقيم السياسي البريطاني في قطر، السيد كاردن D. C. Carden.

وتمارس بريطانيا هذه السلطات بموجب اتفاقيات تشبه الاتفاقيات المعقودة مع دول ساحل القراصنة، التي تمنحها حق الحصرية في العلاقات والامتيازات. وقد أكملت الاتفاقية الأولى، الموقعة في ٣ نوفمبر «تشرين الثاني» ١٩١٦م، باتفاق جديد في عام ١٩٣٤م حدد مفهوم الحماية البريطانية ووسعها. وعلى الرغم من أن محتواه لا يختلف كثيراً عن الاتفاقيات المعقودة مع الشيوخ الآخرين على ساحل القراصنة، فإن علاقات حاكم قطر أكثر متانة مع قوة الحماية.

## البحرين «لؤلؤة الخليج»

اشتهرت إمارة البحرين قديماً بمصائد اللؤلؤ، وتشكل من مجموعة من الجزر، أكبرها جزيرة البحرين التي سميت الإمارة باسمها. والبحرين مقر المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، وتختلف عن جاراتها في عدة نواحٍ.

فمساحة الأرخبيل كلها لا تزيد عن ٥٥١ كيلومتراً مربعاً، وهناك إلى جانب الجزيرة الكبرى، جزيرتان من الجزر الخمسة مأهولة. وعلى الرغم من صغر مساحتها، فإن سكان «لؤلؤة الخليج» [٢١٢] كثيرون، ومختلطون، وسريعو الغضب، نصفهم يسكنون المدن، ونصفهم قرويون. وإن توفر الينابيع الطبيعية المتفجرة في شمال جزيرة البحرين، يتيح إمكانية تطور زراعي فريد، تكمل في عام ١٩٥٧م بمظهر لا سابق له: المعرض الزراعي الأول في الخليج العربي!

أما السكان، الذين يقدر عددهم بـ ١٢٥ ألف نسمة، فسدهم من الجاليات الأجنبية، وفي مقدمتها الجالية الفارسية، ثم الهندية، والإنجليزية-الهندية، والباكستانية. وهناك جماعات أقل عدداً، جاءت من البلاد العربية الأخرى، ومن إمارات الخليج. ونجد بين القادمين من البلدان العربية الأخرى «المثقفين» (من المصريين، والفلسطينيين، والعراقيين، واللبنانيين والسوريين)، وهم قلة إلا أن لهم نفوذاً كبيراً، ونجد السودانيين والعُمانيين، والقطريين، واليمنيين، وغيرهم، يتفاوتون في اندماجهم في المجتمع البحريني. ويعيش في البحرين ٢٠٠٠ بريطاني، و ٤٠٠ إلى ٥٠٠ أمريكي وأوروبي. ويعيش ثلاثة أحماس السكان في المدن الثلاثة: المنامة، والمحرق، والحد، ويتوزع الباقي في ٩٠ قرية ومزرعة. وهناك بضعة آلاف يعيشون في مراكبهم باستمرار.

## التطور الاقتصادي والنزعة القومية

٩٦٪ من سكان البحرين، مسلمون، ولكن الصفة الرئيسية للمجتمع البحريني هي تنوعه المذهبي، وآية ذلك أن المسلمين ينقسمون إلى شيعة وسنة، ويؤدي اختلافهم في بعض الأحيان إلى حصول بعض الاضطرابات. ولا يسكن السنة والشيعه عادة في القرى نفسها، لأن هؤلاء يشكلون جماعات متضامنة. وحصلت بين الطرفين بعض المناوشات؛ ويبدو الآن أن النزعة القومية ستقضي على أسباب الفرقة بين أبناء المذهبين، لمجابهة الهنود والفرس، الذين يمارسون التجارة، ويعملون لحساب شركات البترول. لقد اختفى اليهود تقريباً من البحرين بسبب ازدياد النعمة عليهم بعد إقامة دولة إسرائيل [٢١٣] وعلى الرغم من أنهم أقلية، يتصرف السنة، وكأنهم الأكثرية، وهو وضع يذكر بوضع اليمن.

تحكم أسرة آل خليفة البحرين منذ قرنين، وهم من السنة، ويتولى السنة المراكز

القيادية في الدولة. ويشكو الشيعة الفقراء، الذين يحتلون المراكز الدنيا في المجتمع، من التمييز والمضايقة المقصودين. ولكن ما حدث من تطور في المجتمع البحريني جعلهم يتخلون عن العمل خدماً، وعمالاً بعد أن تركوا الزراعة التقليدية. أما «الأتلجنسيا» العربية، التي تتمتع بحظوة كبيرة، فهي تزود البحرين بالمعلمين، أو بموظفي شركات البترول؛ وأظن أنه من الصواب أن نطلق عليهم في البحرين وغيرها لقب «رسل القومية العربية». لقد حول القوميون الاضطرابات المعتادة في الإمارة بين السنة والشيعة إلى نقمة عارمة ضد الأجانب، وخصوصاً ضد البريطانيين. إن البحرين أكثر إمارات الخليج اضطراباً، لأن النهضة الاقتصادية، الناتجة عن الصناعة البترولية جعلتها تربة صالحة لنمو الشعور القومي.

لقد عرفت البحرين على الدوام ازدهاراً نسبياً بفضل موقعها الجغرافي، وعيونها العجيبة، وصناعة اللؤلؤ القديمة فيها، والتجارة البحرية المزدهرة، وإن حقول أصداف اللؤلؤ فيها أغنى الأرصفة في المنطقة، وقد كان نصف السكان في الجزر البحرينية، حتى ظهور اللؤلؤ الاصطناعي، يعملون في الغوص على اللؤلؤ. وفي غير موسم الغطس ينصرف البحارة والغطاسون البحرينيون إلى صيد السمك والتجارة. ولكن صناعة اللؤلؤ تشهد اليوم تهقراً مستمراً في الخليج كله، ولا يكاد يعمل بها في البحرين إلا ألفا شخص تقريباً في موسمها.

إن التجارة البحرية، وتجارة الترانزيت، هي النشاط التقليدي الذي يحتل المرتبة الثانية في البحرين، فهي تستورد كميات كبيرة من البضائع من كل الأنواع، وتعيد بيعها لجيرانها. وقد أُقيمت منشآت جديدة في المنامة [٢١٤]، الميناء الرئيسي، وعاصمة البحرين، بهدف تسهيل حركة المبادلات التجارية، وفي ١ يناير «كانون الثاني» ١٩٥٨م، أصبحت جزيرة البحرين منطقة تجارية حرة، هي الأولى من نوعها في الخليج. وفي الداخل يزرع الفلاحون الحبوب، والأعلاف، ونخيل التمر، والخضار. أما النصف الجنوبي من الجزيرة، فهو صحراوي، ينابيعه وبركه ماحة

غالباً. وتزود المدن بمياه البحر المحلاة. وهناك ألف وست مئة هكتار من الأراضي الزراعية المروية، ومزرعة البديع التجريبية، تُزرع فيها أنواع جديدة من الزراعات الغذائية، يُنتقى أحسنها إنتاجاً، ويوزع على المزارعين.

وفي نوفمبر «تشرين الثاني» ١٩٥٧م، أُقيم أسبوع التنمية، برز خلاله الاهتمام بقضية الماء عبر قيام الشيخ، عند تدشينه بتشغيل حفارة آلية مخصصة لشق آقنية جر المياه.

## شركة البحرين بترولיום

على الرغم من أن البحرين أقل غنى من جيرانها، إلا أن قسماً كبيراً من مواردها يأتي من عائدات الصناعة البترولية، التي تتوزع بين الاستخراج والتكرير.

إن اكتشاف البترول في جزيرة البحرين شد انتباه شركات البترول إلى هذا القسم من الخليج، مثلما كان اكتشافه في بئر مسجد سليمان في إيران الحافز الذي جعل صيادي الامتيازات يتسابقون إلى المنطقة.

في بادئ الأمر، حصلت شركة الميجور هولمز Major Holmes البريطانية للبترول، على امتياز التنقيب في جزر البحرين، قبل أن تصبح في عام ١٩٣٠م ملكاً للشركة الأمريكية ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا Standard Oil of California، التي أنشأت لهذا الغرض فرعاً كندياً لها باسم البحرين بترولיום Bahrain Petroleum Company - BAPCO. وقد كان تعاونها في عام ١٩٣٤م مع شركة تكساس أويل Texas Oil Company تمهيداً لتأسيس مجموعة شركات كالتيكس Caltex الضخمة، التي تمتلك ٦٠٪ من أرامكو في المملكة العربية السعودية. إن البحرين بترولיום شركة ذات جنسية كندية، برأس مال وإدارة أمريكيين، والموظفون الكبار فيها أغلبهم من البريطانيين.

لقد اكتشف البترول في عام ١٩٣٢م، في العوالي، جنوب غرب المنامة، وبدأ استثماره منذ عام ١٩٣٤م. ولا يمكن إلا بصعوبة زيادة إنتاج البحرين المتواضع من البترول بسبب التركيب الجيولوجي للمنطقة التي توجد فيها آبار البترول. وفي كل سنة ينبغي حفر ١٠ إلى ١٢ بئراً جديداً [٢١٥] للمحافظة على مستوى الإنتاج؛ وقد وصل إلى أعلى حد له في عام ١٩٤٨م، بإنتاج قدره ١,٥٠٠,٠٠٠ طن سنوياً. وقد كان الاحتياطي في عام ١٩٥٣م مقدراً بـ ٨٠٠ مليون برميل. أما تكرير البترول، الصنف الثاني من الصناعة البترولية في البحرين، فقد شهد توسعاً مستمراً، مستفيداً على وجه الخصوص من إغلاق المصفاة العملاقة في عبادان، إبان الأزمة البريطانية الإيرانية (١٩٥١-١٩٥٤م).

أما مصفاة البحرين فقد أنشئت عام ١٩٣٦ في سترة. وارتفعت طاقتها السنوية من ٦٦ مليون برميل في عام ١٩٥١م، إلى ٧٨ مليون في عام ١٩٥٤م، أي حوالي ١٠ مليون طن. ولكن تطور منشآت المملكة العربية السعودية والكويت حدّ من تطور مصفاة سترة. ويأتيها القسم الأعظم من البترول الخام، الذي يُكرر فيها من آبار الأحساء، بوساطة أنابيب تحت البحر، يبلغ طولها ٢٦ كم. ومنذ عام ١٩٥٣م تتلقى المصفاة أيضاً البترول الخام من سومطرة؛ وإن كمية الخام المكرر، الذي يأتي من الإنتاج البحريني، مستقر تقريباً على ١١ مليون برميل سنوياً، مقابل ٦٣ مليون من المملكة العربية السعودية.

إن شركة البحرين بترولיום توظف ٩ آلاف شخص، وإن ازدهار الحقول النفطية المجاورة الشاسعة، والنشاط التجاري المتزايد في كل أنحاء الخليج، كل ذلك، يضع البحرين في موقف صعب. فعائداتها البترولية تبلغ حوالي مليونين ومئتين وخمسين ألف جنيه إسترليني في السنة منذ اتفاق تقاسم الأرباح في عام ١٩٥٢م. أما العائدات الجمركية، المورد الثاني من موارد الإمارة، فهي تقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم مخصص للأمير وأسرته، ويذهب القسم الأكبر منه للهبات التقليدية؛ وقسم ثانٍ يستثمر في

أسواق المال ويدر أرباحاً كبيرة وتشكل فوائده مورداً من موارد الإمارة أيضاً؛ والقسم الثالث يستخدم لدعم المواد الغذائية الأساسية لبرنامج اجتماعي ضخم. وقد بُدلت في السنوات الأخيرة جهود كبيرة في حقلَي التعليم، والرعاية الصحية، ويمكن للإمارة أن تفخر بشبكة كبيرة من المدارس والمستشفيات، والمستوصفات ذات المستوى العالي.

## النزاع البريطاني-الإيراني

تدين البحرين في جانب كبير من تطورها السياسي والاجتماعي [٢١٦] لعلاقتها الطيبة مع بريطانيا، تلك العلاقات التي ترجع، شأنها شأن العلاقات مع بقية دول ساحل القراصنة، إلى الاتفاقية المعقود عام ١٨٢٠م مع شركة الهند الشرقية. ثم تلاها اتفاقات ٢٢ ديسمبر «كانون الأول» ١٨٣٠م، و١٣ مارس «آذار» ١٨٩٢م، التي فرضت على شيخ البحرين الالتزامات نفسها، المفروضة على بقية الشيوخ في الخليج العربي، والتي تتعلق بالحقوق الحصرية لبريطانيا. وأخيراً وعد حاكم البحرين في رسالتين تعودان إلى ١٩١١ و ١٩١٢م، البريطانيين ألا يمنح أي امتيازات تخص اللؤلؤ أو البترول، دون استشارة ممثل جلالة ملك بريطانيا وموافقة. والحاكم الحالي الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة، خلف والده عام ١٩٤٢م، وهو يحكم منذ ذلك الحين بمساعدة مستشاره البريطاني السير تشارلز بلجريف. Charles Belgrave<sup>(١)</sup> أما أخطر الاعتراضات على وضع البحرين، فقد بدرت من إيران، التي تطالب بالجزر البحرينية منذ عام ١٨٢٩م، وتتهم بريطانيا باختلاس السيادة عليها. لقد جاء في المادة السادسة من اتفاقية جدة بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا في عام ١٩٢٧م، أن البحرين دولة مستقلة، تربطها علاقات خاصة مع بريطانيا، مما أثار غضب الإيرانيين الذين رفعوا شكوى إلى عصبة الأمم. وتزعم إيران أن هناك مذكرة، مؤرخة في ٢٧ أبريل «نيسان» ١٨٦٩م، صادرة عن وزير الخارجية البريطاني، اللورد

(١) نشر هذا المستشار مذكراته في كتاب باللغة الإنجليزية ترجمها مهدي عبد الله تحت عنوان : مذكرات بلجريف، متشار حكومة البحرين سابقاً، ط١، البحرين مكتبة الريف الثقافية؛ بيروت ، دار البلاغة. ١٤١١هـ / ١٩٩١م (النييف) .

كلاراندون Lord Clarendon، فيها اعتراف صريح بالسيادة الإيرانية على البحرين، وهو ما تكذبه بريطانياً بشدة.

وقد كان منح الامتيازات البترولية عام ١٩٣٠م، و ١٩٣٤م، موضع احتجاج شديد من حكومة الشاه؛ وعندما قصفت القاذفات الإيطالية القاعدة البريطانية في البحرين، في أكتوبر «تشرين الأول» ١٩٤٠م، احتجت إيران، التي كانت ما تزال على الحياد، لدى السلطات الإيطالية على قيام طائراتها «باختراق مجالها الجوي». وفي عام ١٩٤٦م، عادت إيران إلى المطالبة بالبحرين من جديد، تدعمها وسائل الإعلام الروسية، مما أدى إلى تعزيز القواعد البريطانية في البحرين. وأدى الخلاف البريطاني الإيراني إلى إثارة قضية المطالبة الإيرانية من جديد، وفي عام ١٩٥٢م، جدد الدكتور مصدق المزايم الإيرانية، التي لم تتخل عنه حكومة زاهدي. وقبل الاجتماع الأول لأعضاء حلف بغداد، الذي عُقد في كراتشي، صرح الدكتور علي أردلان، وزير [٢١٧] الخارجية الإيراني في ٧ أبريل «نيسان» ١٩٥٦م في طهران أن «البحرين كانت جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الفارسية»، وتلقى سفراء الدولة الفارسية، تعليمات تطلب منهم الاحتجاج بشدة ضد أي عمل لا يتفق مع مبدأ السيادة الإيرانية على البحرين.

وفي ١٢ نوفمبر «تشرين الثاني» ١٩٥٧م، أعلنت حكومة طهران «ضم» أرخبيل الجزر البحرينية، الذي أصبح المحافظة الإيرانية الرابعة عشرة. وقد كانت الحكومة الإيرانية منذ زمن طويل، ترفض جوازات السفر التي تحمل تأشيرة «أجنبية» للبحرين، وهو أمر يتعارض مع مزاعمها بالسيادة على الأرخبيل. وعينت طهران حاكماً إيرانياً للبحرين، ولكن بريطانيا اكتفت بإعادة تأكيد استقلال الإمارة، في ظل حمايتها.

لم يكن ذلك إلا تذكيراً بالخطوط الرئيسية للخلاف البريطاني الإيراني بشأن البحرين؛ ويشهد هذا الموجز في رأيي على استمرارية إيرانية واضحة في مطالبة ليس لها أي أمل في الوصول إلى شيء في المنظور القريب: لأنه أمر لا ترضى به البحرين، ولا أي دولة عربية أخرى. أما بريطانيا فإن الأرخبيل هو موقع حراسة

بالنسبة إليها، وقاعدة وجودها في الخليج، ميناؤه قاعدة بحرية، ومطاره قاعدة جوية، والمنامة مقر المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، يرعى منها السير برنارد بوروز Bernard Burrows المصالح البريطانية. وقد أدت الأحداث التي وقعت في شرقي الجزيرة العربية، في عُمان، و البريمي، وتخریب المنشآت في مناطق الاستثمارات البترولية، إلى تشديد القبضة البريطانية على البحرين. و أظن أن قرار «الضم» الإيراني، تولد عن الغيظ الذي تلا إعلان إنشاء منطقة حرة في المنامة. ومهما يكن من أمر فإن إيران قد أظهرت إصراراً عجيباً على مطالبها.

## الإدارة الداخلية

إن أمر العلاقات الخارجية والدفاع في إمارة البحرين، كما هي الحال في بقية إمارات الخليج، هي في أيدي البريطانيين، الذين يمثلهم المقيم السياسي، الذي يختلف عن المقيم العام. وفي الداخل [٢١٨] يحكم الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة، يساعده مجلس استشاري، مؤلف من أعضاء من أسرته، ومجموعة من كبار الموظفين البريطانيين، أعلاهم قدراً، والمستشار الخاص للحاكم، هو السير تشارلز بلجريف، الذي يقيم في البحرين منذ عام ١٩٢٦م.

وإن الاضطرابات التي بدأت منذ عام ١٩٥٤م بإضراب عام، كانت موجّهة ضد السير تشارلز، الذي يبدو أنه قد عُزل من منصبه في عام ١٩٥٧م بسبب الضغط الشعبي.

إن النظام في البحرين نظام حكم مطلق، يخفف من شموليته وجود مجالس للصحة والتعليم، يتم انتخاب نصف أعضائها منذ عام ١٩٥٦م، والآخرون يعينون تعييناً. ويُختار أعضاء المجالس البلدية في مدن المنامة، والمحرق، والحد، والرفاع، بالطريقة نفسها. وهناك لجان خاصة مكلفة بشؤون أقسام خاصة من الإدارة. وعلى

الرغم مما في نظام الحكم في البحرين من نواقص فإن حكومة البحرين متقدمة جداً على أنظمة الحكم المجاورة. ومع ذلك تزمجر المظاهرات على الدوام في «لؤلؤة الخليج». وقد جرت أحداث خطيرة في عام ١٩٥٦م، عندما مر بالجزيرة السيد سلوين لويدي Selwyn Lioyd، وزير خارجية بريطانيا، واضطرت السلطات إلى تأخير موعد مغادرته مدة أربع ساعات، بسبب المظاهرات المعارضة. وفي نوفمبر «تشرين الثاني» ١٩٥٦م، كان للهجوم على بورسعيد ردة فعل مباشرة، وعنيفة، تجسدت على الفور بمظاهرات عارمة، وتخريب، استدعياً لإرسال تعزيزات عسكرية محمولة جواً. واعتقل عدد من قادة المظاهرة، وفرضت رقابة شديدة على الصحف، وأعلنت حالة الطوارئ. وفي يناير «كانون الثاني» ١٩٥٧م، تجددت المظاهرات، بعد أن أُدين عدد من الزعماء الوطنيين. إن المناخ السياسي السيئ في البحرين، يسوغ المخاوف، التي يعرب عنه عادة أولو الأمر في الخليج، بخصوص تطور دول الخليج العربي.

## الفصل الخامس عشر

### [٢١٩] الكويت العجيبة

إن الكويت، بلا شك، أشهر الإمارات العربية على الخليج. إن ثروتها البترولية الضخمة، وتطورها السريع، يجعلان من العسير، بل من المستحيل، الحديث عنها دون استخدام صيغ التفضيل والمبالغة. لقد انتشرت الثروة على الكويت انتشار النار في الهشيم، وتكاد أثارها تظهر على كل الناس. وإن الحكايات العربية عن مغامرات علاء الدين العجيبة، الرائعة، تغدو باهتة، ولا قيمة لها أمام المعجزة الكويتية. لقد حصل أميرها، الثري الجديد، في عام ١٩٥٦م، ما يعادل ثلاث أو أربع مئة مليون فرنك في اليوم بالدولار والجنيه الإسترليني. ومن المتوقع أن يتضاعف إنتاج البترول خلال السنوات الخمس القادمة. وتنافس الكويت المملكة العربية السعودية بأهمية كميات البترول الاحتياطية المعروفة فيها، مع أن مساحتها أقل بمائة مرة. وإمارة الكويت، صحراء مستوية، ليس فيها ماء عذب، ولا زراعة، وليست إلا إسفنجة مضمخة بالبترول، ويتداول الناس بشأنها طرفة تناقلتها الألسن عبر العالم:

في عام ١٩٥١م، توجه مبعوثو الأمير إلى الولايات المتحدة الأمريكية، في مهمة مخصصة للحصول على مصافٍ لتحلية مياه البحر. وقد شُدَّه الأمريكيون من إمكانية أن يعيش البشر في بلد خالٍ من مياه الشرب تماماً، فنصحوا المبعوثين الكويتيين قائلين:

- ولكن افعلوا أي شيء، احفروا آباراً!

- أجاب الكويتيون باشمئزاز: مستحيل!.

- لأننا ما إن نحفر حتى ينبجس البترول!

وسواء كان ذلك صدقاً أو كذباً، فإن هذه القصة تلخص حالة الكويت كله، بلد عجيب من بلاد الذهب الأسود، لا يعيش إلا للبترول وبالبترول. لقد تحول

البحارة المساكين، والصيادون، الذين كانوا يقيمون حول مرفأً طبيعي صغير على الخليج، هادئ، أزرق، خلال عشر سنوات إلى تجار، وأصحاب مشاريع بناء، ورجال أعمال. وإن أقلهم حنكة يعمل في الشركات البترولية، أو للشركات الخاصة بأجور خيالية. لقد أُزيلت مدينة الكويت، العاصمة القديمة، التي تثير الإعجاب، وأُقيمت على أنقاضها مدينة حديثة، تنتشر فيها الأبنية الفخمة البيضاء على امتداد الشوارع العريضة، المستقيمة. وتسير متهادية على الطرقات العريضة المعبدة، التي حلت محل الطرقات القديمة، سيارات البويك Buick، والكاديلاك، التي جعلت الكويتيون ينسون الجمال القديمة. والماء العذب، هذا الترف الذي كان في الماضي يكلف الكثير، يسيل اليوم من الصنابير المنكّلة في البيوت المكيفة. وإن اللافتات الضوئية، التي تشق ظلمة الليل بأنسابها المختلفة الألوان، تذكر بمحطة سان-لازار Saint-Lazare، وبيكاديللي Piccadilly، أكثر مما تُذكر بسوق شرقي.

إن الظروف الاستثنائية، جعلت من الكويت أكثر بلاد الشرق معاصرة، حقل اختبار اجتماعي عجيب، تعبر فيه العينات البشرية خلال بعض السنين قرناً طويلاً من التطور.

## بحارة وبناءة مراكب

يتجمع سكان الكويت عموماً على الساحل، حول جونها الرائع. وتضم مدينة الكويت ١٢٠ ألف نسمة على الجانب الجنوبي للساحل، ويتوزع ٨٠ إلى ١٠٠ ألف آخرون على عدد من القرى والمراكز البترولية. وفي جنوب الجون الطبيعي بُني الميناء البترولي المسمى: ميناء الأحمدى. إن موقع الإمارة في الزاوية الغربية من الخليج، يجعل منها الميناء الطبيعي لبلاد الرافدين، ولشمال الجزيرة العربية. وأعلن العراق منذ مدة عن رغبته في إنشاء ميناء بترولي، ولكنه اصطدم بمعارضة الأمير وحذره، نظراً

للأطماع العراقية القديمة في أرض الكويت. وقد رُسِّمت حدود الكويت، التي تفصلها عن جارتَيها الكبيرتين، العراق، والمملكة العربية السعودية، بموجب بروتوكولات العقير<sup>(١)</sup>؛ ويقع على تلك الحدود امتداد مسطح من الصحراء القاحلة، يترحل فيها حوالي ١٠ إلى ٢٠ ألف بدوي. وقد قسم ذلك الموقع إلى منطقتين «منطقتين محايدتين»، الأولى في الجنوب، والأخرى في الداخل من وراء.

إن المنطقة المحايدة الجنوبية، التي تحاذي الخليج بين الأحساء والكويت، تخضع للسيادة المشتركة [٢٢١] السعودية، الكويتية. لقد تحدثت فيما مضى عن السبب الوحيد، الذي يدعو للاهتمام بهذه المنطقة، وهو استثمار البترول؛ وحقوق الكويت في المنطقة مُنحت لشركة أمريكان أنديانديت أوليل American Independent Oil Company -AMINOIL، وهي مجموعة من عشر شركات أمريكية «مستقلة»، تعمل بالتعاون مع شركة جيتي أوليل Getty Oil Company، صاحبة الامتياز السعودي.

الكويتيون كلهم من أصل عربي، وهم المسلمون من السنة؛ وهناك ١٠٠٠ إيراني، يقيمون في العاصمة منذ القرن الثامن عشر. ولم تتعرض الكويت لأشكال النفوذ الأجنبية، التي رأيناها في البلاد الأخرى، الواقعة تحت الحماية في الخليج.

لقد كان الموقع الجغرافي الفريد للجون الطبيعي على ساحل الخليج، حافزاً لتأسيس الدولة، التي حملت اسم الكويت. وقد فرض الجون أيضاً خلال فترة طويلة الأعمال التي زاوتها غالبية سكانها؛ فهم بحارة، وغطاسون على اللؤلؤ، وبناء مراكب، مشهورة بجوؤها المزين بالنقوش.

ومنذ أن بدأ عصر البترول، بدأت هذه المهن القديمة بالتلاشي، وبدأ السكان يختلطون بالمهاجرين العرب الذين جاءوا من مناطق الخليج الأخرى، ولاسيما العراقيين، ناهيك عن «الأنتليجنسيا» العربية، التي لا يمكن تجاهلها.

---

(١) تمت هذه البروتوكولات بين العراق والمملكة العربية السعودية في ١٢ ربيع الآخر ١٣٤١هـ الموافق ٢ ديسمبر ١٩٢٢م وألحق بها ملحق وقع في ٢٤ رجب ١٣٤١هـ الموافق ١٣ مارس ١٩٢٣م، انظر الأطلس التاريخي، م.س ص ٢٢٨ (المنيف).

كان الكويتيون فيما مضى يمارسون الأعمال التي لها علاقة بالبحر. وكان جلد بحارتها، وروعة سفنها، مصدر شهرة الكويت. وبعد أن كان البحارة الكويتيون غاصة على اللؤلؤ، وصيادون في مواسم الصيد، أصبحوا اليوم يهتمون بالتجارة البحرية بين الخليج العربي، والهند، وإفريقيا؛ يحملون في الذهاب تمر البصرة اللذيذة، ويعودون بأحمال الأخشاب، التي يستخدمونها في بناء زوارق سريعة تحمل مئات الأطنان. هذه المراكب المشهورة من بومباي إلى زنجبار، وفي المحيط الهندي كله، وحتى في البحر الأحمر، هي مصدر اعتزاز وطني للكويتيين.

ولما أراد الأمير السابق أن يقتني يختاً، اختار أن يجري بناؤه في الورش المحلية بدل أن يطلبه من الخارج. ومازال الكويتيون يستوردون الخشب من مالابار، غير أن صناعة بناء المراكب، شأنها شأن صناعة اللؤلؤ، هي في تقهقر مستمر في منطقة الخليج كلها. ليس في الكويت، المحرومة من المياه، أية زراعة [٢٢٢]، وعليها أن تستورد كل المواد الغذائية الضرورية، وتحصل على مياه الشرب من محطتي تحلية مياه البحر، اللتين تعملان ليل نهار. كان الماء الصالح للشرب يُجلب في السابق في مراكب من شط العرب في العراق، على مسافة ٨٠ كم من الكويت؛ وكان يُنقل في خزانات ضخمة من الخشب، وكان يُباع من ميناء إلى آخر في قُرب من جلد الماعز. وبدأ التفكير في جر المياه من شط العرب منذ موجة الازدهار العظيم، الذي شهدته الكويت. وسيوفر هذا المشروع، في حال إنجازه، إمكانية تنمية زراعية محدودة، ولكننا نتساءل، عمن يود أن يعمل في الزراعة في بلد أصحاب الملايين؟ وقد بدأت شركات البترول تجد صعوبة في الاحتفاظ باليد العاملة المحلية التي تدرّبها؛ لأنه من السهولة بمكان أن يكون المرء ثروة، مما جعل ذوي الكفاءات والحيوية يفضلون تجربة حظهم في الأعمال الحرة. وهذه المشكلة ليست وقفاً على الكويت وحدها، إنها مشكلة جميع المناطق البترولية في الخليج العربي.

## الكويت أويل كومباني

حصلت شركة الكويت أويل Kuwait Oil Company في عام ١٩٣٤م، على امتياز يشمل الأراضي الكويتية كلها، مدته خمسة وسبعين عاماً. أما الاتفاق الجديد حول اقتسام الأرباح، الذي وقع في عام ١٩٥١م، فقد جُدد بموجبه الامتياز لمدة ٧٥ عاماً، بدءاً من ديسمبر «كانون الأول» عام ١٩٥١م. وشركة الكويت أويل، مسجلة في كندا لمراعاة الحقوق البريطانية الحصرية، وتتألف من قسمين متساويين تمتلكهما شركتا دارسي كويت أويل (B. P Arcy D')، وهي فرع من الشركة البريطانية القحة، بريتيش بتروليوم British Petroleum Company، وشركة غولف كويت أويل Gulf Kuwait Oil Company، وهي فرع من الشركة الأمريكية الضخمة غولف أويل كوربوريشين Gulf Oil Corporation. واتفقت الشركتان شركتين على أن تستعيد كل منهما استقلاليتها بمجرد أن تبدأ الكويت بتصدير بترولها.

اكتُشف أول بئر بترولي في عام ١٩٣٨م، بعد كان التنقيب الأولي غير مجدياً. ومنذ اللحظة الأولى، بدا أن الآبار هي من أهم الآبار في العالم جيولوجياً وغازة، فما من بئر في الكويت يتجاوز عمقه ١٥٠٠ متر، وشروط [٢٢٣] الاستثمار هي على العموم اقتصادية. ناهيك عن أن قرب البحر، وكونه في مستوى أكثر انخفاضاً من الحقول، يسمح بإرسال البترول الخام للساحل دون حاجة إلى الضخ. وعلى الرغم من هذا كله، وبسبب الحرب العالمية على وجه الخصوص، لم يبدأ الإنتاج التجاري إلا في عام ١٩٤٦م، ليصل بسرعة إلى أرقام قياسية.

إن الإمكانيات البترولية الكويتية الضخمة كانت موضع اختبار خلال الأزمة البريطانية-الإيرانية، وما تلا ذلك من توقف الشركة الأنجلو-إيرانية، شريكة شركة بريتيش بتروليوم، عن الإنتاج في إيران على الجانب الآخر من الخليج العربي.

## تقديم خيالي

في يونيو «حزيران» ١٩٤٦م، توجهت أول شحنة من البترول الخام الكويتي نحو أوروبا؛ ٨٠٠ ألف طن من البترول، المستخرج في هذه السنة، درت على الشيخ مبلغ ٨٠٠ ألف دولار. وفي عام ١٩٥٠م، بلغ الإنتاج ١٧ مليوناً و ٣٠٠ ألف طن، درت على الأمير ١٢ مليوناً، و ٤٠٠ ألف دولار. وفي عام ١٩٥١م جاء الاتفاق الخاص باقتسام الأرباح بالتساوي، وفي عام ١٩٥٦، وعلى الرغم من تخفيض الإنتاج بسبب أحداث بورسعيد، بلغ الإنتاج ٥٥ مليون طن، درت على الشيخ ٣٠٠ مليون دولار، ناهيك عن عائدات المنطقة المحايدة. وتوقع الشركة أن تزيد الإنتاج في السنوات القادمة ليصل حتى عام ١٩٦٢م، إلى ١٧٥ أو ١٨٠ مليون طن؛ أي ما يعادل الإنتاج الكلي للشرق الأوسط بأسره في عام ١٩٥٦م. إن التغيرات الجذرية التي حصلت في الكويت توضحها الأرقام التالية: ارتفاع الإنتاج من ٨٠٠ ألف طن إلى ٥٥ مليون طن خلال عشر سنوات، وارتفعت العائدات من ٨٠٠ ألف دولار إلى أكثر من ٣٠٠ مليون دولار في الفترة نفسها. ويُتَظَر أن يتضاعف هذا الرقم ثلاث مرات في السنوات الخمس المقبلة.

ويبين الجدول التالي بأرقام صحيحة الارتفاع الذي شهده الإنتاج منذ

عام ١٩٤٦م:

١٩٤٦	٨٠٠,٠٠٠	طن.
١٩٤٧	٢,٢٠٠,٠٠٠	طن
١٩٤٨	٦,٣٠٠,٠٠٠	طن
١٩٤٩	١٢,٤٠٠,٠٠٠	طن

١٩٥٠	..... ١٧,٣٠٠,٠٠٠ طن
١٩٥١	..... ٢٨,٢٠٠,٠٠٠ طن
١٩٥٢	..... ٣٧,٦٥٠,٠٠٠ طن [٢٢٤]
١٩٥٣	..... ٤٣,٣٠٠,٠٠٠ طن
١٩٥٤	..... ٤٧,٧٠٠,٠٠٠ طن
١٩٥٥	..... ٥٤,٧٥٠,٠٠٠ طن
١٩٥٦	..... ٥٥,٠٠٠,٠٠٠ طن
١٩٥٧	..... ٥٧,٣٠٠,٠٠٠ طن

لا يمكن أن نعدَّ سنة ١٩٥٦م، ولا سنة ١٩٥٧م ستي إنتاج طبيعي بسبب العدوان الثلاثي على بورسعيد. وقد عرفت الكويت، شأنها شأن الإمارات الأخرى، تدميراً طال بعض المنشآت، وقد جعل تعذر وصول الناقلات المفاجئ، الإنتاج في عام ١٩٥٦م على وجه الخصوص يهبط إلى النصف. ولم يعد المعدل الشهري إلى مستواه السابق إلا ابتداء من شهر يونيو «حزيران» ١٩٥٧م.

كان احتياطي الكويت من البترول يُقدر في عام ١٩٥٣م بـ ١٨ مليار طن، و ٢٠٠ مليون برميل، أي ١٥٪ من مجموع احتياطي العالم غير الشيوعي. وفي عام ١٩٥٥م، قُدِّرَ هذا الاحتياطي بـ ٢٥ مليار برميل. وإن الحقول الجديدة المكتشفة حديثاً في الشمال، لم يجرِ بعدُ تقدير مخزونها، تضيف إلى إنتاج الكويت الأخير عدداً لا يستهان به من البراميل.

يقع الحقل الرئيسي على بعد حوالي ٤٠ كم إلى جنوب مدينة الكويت، وأشهر آباره المنتجة البُرْقَان<sup>(١)</sup>، والمَقْوَع. ومنذ عام ١٩٥٦م، حصلت الشركة على نتائج

(١) ينطقونها البرجان، وهي محرفة عن كلمة البركان ( المترجم ).

واعدة، عندما حفرت آباراً تجريبية (wild cats) في منطقة شمالية نائية. تقع المنطقة البترولية الجديدة في الطرف المقابل للمنطقة الأولى، بين جون الكويت الصغير والحدود العراقية. وبعد النتائج المشجعة في الروضتين، بدأت أعمال الحفر في الصبيرة، الواقعة جنوب النقطة الأولى، ثم في بحرة Bahra في الجنوب الشرقي، وأخيراً في مطربة في الشمال الغربي. لقد كان المنقبون يعملون انطلاقاً من مركز رئيسي ليشكلوا سياجاً من الحفريات على شكل دائرة، تحدد الحقل الجديد.

وفي نهاية عام ١٩٥٨م، أو ١٩٥٩م، عندما تصبح منطقة الإنتاج هذه مربوطة بشبكة الأنابيب التي تنتهي إلى الساحل، سينتج هذا الحقل الجديد عدة ملايين من الأطنان الإضافية<sup>(١)</sup>. [٢٢٥]

يوجد مركز التخزين، ومكاتب إدارة الشركة في الأحمدية، على مسافة بضعة كيلومترات من حقول الإنتاج في البرقان، والمقوع. ويُصنَعُ البترول الخام حتى خزانات الأحمدية، ويمكن إيصاله من هناك إلى ميناء الأحمدية بسهولة ويسر، والأحمدية ميناء بترولي من أحدث الموانئ في العالم. وتوجد هناك أيضاً مصفاة تُلبّي الحاجات المحلية، وتزود بالوقود الناقلات الكثيرة العاملة في الخليج. وقد كانت طاقتها مليوناً و٥٠٠ ألف طن، فُرِفِعَت إلى ٨ ملايين و ٥٠٠ ألف طن. ويمتلك ميناء الأحمدية أحدث تجهيزات الشحن، على الأرصفة أو تحت البحر، تستطيع خلال بضعة ساعات من تحميل أكبر ناقلة بترول عاملة اليوم في العالم.

وإن استخدام الآلة خفض اليد العاملة البشرية إلى بعض العمال الضروريين للعمليات، التي تستمر بورديات تناوب خلال أربع وعشرين ساعة. يستطيع ميناء الأحمدية، بتجهيزاته الحديثة، أن يشحن مليون برميل من البترول الخام في اليوم، وهذا رقم عالمي قياسي يصعب تجاوزه في هذا المجال. وفي عام ١٩٥٤م، شحن ميناء الكويت البترول وصدّر أكثر من ٤٥ مليون طن من البترول الخام على متن ٢٤٩٧

(١) معلومات قدمها للمؤلف ممثل الشركة.

ناقلة، بمتوسط قدره ٧٠ ناقلة في اليوم الواحد. وكثيراً ما تستخدم أساطيل نقل البترول التي تبخر في الخليج العربي التسهيلات الموجودة في ميناء الأحمدى لملء خزاناتها بالوقود. وعلى الرغم من التطور الذي تشهده الموانئ والمصافي المجاورة، إلا أن ميناء الأحمدى لا يني زداد أهميته.

وعلى الرغم من استخدام الآلة في العمليات استخدماً مطرداً، فإن أكثر من ٨ آلاف شخص يعملون في شركة الكويت أويل، بينهم ألف أوروبي وأمريكي. إن استثمار البترول، ناهيك عن أنه يوفر فرص العمل، والربح لقسم كبير من السكان؛ ويحدث نشاطاً كثيفاً في مجال البناء، والأشغال العامة، وتوسعاً تجارياً، لازدياد الطلب في المجالات كلها، هو أيضاً سبب في غنى غير متكافئ، ولكنه يشمل كل الناس. إن مدينة الكويت، ميناء رئيسي للدولة، وهي أيضاً مركز لإعادة التصدير، والترانزيت، للسلع الصادرة عن داخل الجزيرة العربية أو الواردة إليه. إن حركة الاستيراد [٢٢٦] والتصدير الناشطة، تدل على وجود تجارة خارجية تزداد حيوية يوماً بعد يوم. وناهيك عن البترول، تصدر الكويت الصوف، والجلود، واللؤلؤ. كما تبع الورش البحرية في الإمارة المراكب للراغبين من الإمارات الأخرى على الخليج العربي. وتستورد الكويت المواد الغذائية بأنواعها، والتجهيزات الضرورية أو الكمالية: إن الكويت الغنية، تبادل ذهبها الأسود بمختلف أنواع السلع. ومنذ عدة سنوات، يتزايد حجم الواردات باطراد، وتقسم الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا القسم الأكبر مما تستورده الكويت.

## دولة نموذجية

إن الاتفاقات البترولية الجديدة، وإنتاج البترول الذي يتزايد بلا انقطاع، عجلا بالتحويلات المذهلة في الكويت. فمنذ عام ١٩٥٣م، وجدت الشركات نفسها مضطرة

إلى أن تدفع للإمارة نصف الأرباح الخالصة التي تحققها. وكانت آلية اتفاقات ١٩٥١م تفرض ضريبة «بتروولية»، تُحسب قبل حسم ضريبة الدخل، التي تدفعها الشركة في بلدها الأصلي، لتحصل الكويت على ٥٠٪ من الربح الصافي. وهذا هو النظام الذي تعبر عنه العبارة الأمريكية السمجة: نصف-نصف fifty-fifty.

وهذه الاتفاقات قابلة لأن يُعاد النظر فيها، إذا حصلت بقية البلدان المنتجة للبتروول في الشرق الأوسط على شروط أفضل<sup>(١)</sup>.

وتوظف موارد الأمراء الضخمة بذكاء. إن الشيخ سالم الصباح «حاكم مطلق مستنير»، قرر أن يصنع من بلده مثلاً للدولة العصرية. لذلك نجده يستثمر قسماً من عائدات البترول بقيم ثابتة على المدى المتوسط والبعيد، ويشرف على هذه الاستثمارات مجلس استثمار أنشئ خصيصاً لهذا الغرض.

إن هذا السلوك [٢٢٢٧] يحول البترول المستخرج، الذي يمكن أن تجف آباره، إلى مصادر دخل جديدة. وبعد تخصيص قسم من الواردات للأسرة الحاكمة، والهبات التقليدية، وما يلزم لتسيير إدارة البلاد، يُخصص القسم الأكبر من العائدات لمشروعات ضخمة، دون أن تكون باذخة. والمثال التقليدي على هذه المنجزات، التي تغير نوع الحياة ومستواها لدى الكويتيين، هو محطات تحلية مياه البحر، التي تم بناؤها بتكاليف ضخمة. لقد كانت الكويت تحت رحمة العراق في حاجتها لمياه الشرب، ولما تحررت من ذلك، قبل الأمير ببناء قناة طولها أكثر من ١٠٠ كم، تحمل مياه شط العرب للإمارة. لقد أفلح الأمير، ولكن بتكاليف باهظة، من جعل الكويت العاصمة من أحدث العواصم في العالم، فبناها من جديد، وشق شبكة واسعة من الطرقات، وأنشأ الميناء، والمطار، والمستشفيات، والمدارس، وشبكة توزيع مياه

(١) تشهد الأوساط البترولية حالة هياج شديد منذ عام ١٩٥٧م، بعد الاتفاق الذي وقّع في إيران بين إنريكو ماتيني Enrico Mattéi، رئيس شركة إنت ناشيونالي إيدروكاربوري Ente Nazionale Idrocarburi، وهي شركة بترول إيطالية، وسيجري الحديث عن هذا الاتفاق فيما سيأتي.

الشرب، والغاز، والكهرباء، وشبكات الصرف الصحي، والتكييف، كل ذلك، جعل من القرية القديمة المهجورة، الغافية على مينائها، جنة على الخليج العربي-والأمور كلها نسبية.

لقد خصص الشيخ القسم الأعظم من التمويل لتطوير الخدمات الصحية والتعليمية. فالإمارة التي كانت قبل البترول لا تمتلك إلا مستشفى متواضعاً، أصبحت نموذجاً لا يدانى في التقدم الصحي، وسكان البلاد المجاورة يأتون للاستشفاء في الكويت؛ فقد بُنيت خمس مستشفيات، مجهزة بأحدث الأجهزة، تعمل بإشراف جهاز ضخم من الأطباء والمرضين. وأحدث في الوقت نفسه ٢٥ مستوصفاً، تقدم العناية المجانية في مختلف أنحاء الإمارة. كما أن شركة الكويت أويل تمتلك مستشفيات ومستوصفات خاصة بها.

والتعليم الذي انتشر انتشاراً كبيراً، هو أيضاً مجاني تماماً، شأنه شأن العناية الصحية. تلك هي السمات الأساسية لهذه الدولة النموذجية، ولكن قلة من البلاد تستطيع الوصول إلى ذلك.

فالتلاميذ في الكويت، يلبسون، ويأكلون، ويُعالجون، مجاناً خلال فترة دراستهم. وتمكنت الإمارة في أقل من عشر سنوات أن تجعل كل مواطنيها تقريباً-٩٥٪- ممن هم في سن التعليم، ينتظمون في المدارس. لقد أنشأت ٥٥ مدرسة ابتدائية، وإعدادية[٢٢٨] وتقنية، ووظفت أكثر من ١٠٠٠ أستاذ، وبلغ عدد التلاميذ أكثر من ٢٠ ألف تلميذ، تلك هي النتيجة الإيجابية للجهود في مجال التعليم. ناهيك عن أن عدة مئات من الشباب الكويتي يتابعون دراساتهم في البلاد الأجنبية بمساعدة المنح التي تقدمها لهم الدولة، في بريطانيا، وفي مصر. وهناك أيضاً منح للدراسة التقنية، توزعها شركات البترول، التي تمتلك مراكزها الخاصة للتعليم التقني، والتأهيل المهني.

## أسباب تدعو إلى القلق

إن التقدم الرائع الذي شهدته الكويت يحمل في طياته بوادر اضطرابات مستقبلية. إن هذا البلد الصغير، الذي اكتفى مادياً، ويشهد ظروفاً اجتماعية واقتصادية فريدة، كان عليه أن يستقدم في المجالات كلها تقنيين ومختصين أجانب. فالهيئة التدريسية تضم عدداً كبيراً من المصريين والفلسطينيين، الذين يشكلون في كل مكان «الطابور الخامس» للقومية العربية. وعندما يوكل أمر تربية الأجيال القادمة إلى مدرسين ذوي أفكار ثورية، يوحون للشبيبة بولاءات جديدة، حينئذٍ قل: على الأنظمة القديمة السلام.

إن الشبيبة الكويتية التي تبنت فكرة مجردة هي «القومية العربية»، تنظر بازدراء إلى الحدود التي تحيط بهذا المربع الرملي الذي يحكمه الشيخ العجوز، دون أن يلاحظوا أن إيديولوجية أصدقائهم القوميون لا تخلوا من الطمع بما لديهم. إن الشرور الناتجة عن ذلك يصعب تفاديها: إن طريقة الحكم البطريركية «للحاكم المطلق المستنير» في الكويت، محكوم عليها بالزوال مستقبلاً؛ ولكن بأي طريقة لا نعلم بعد. في عام ١٩٥٧م، صرح رجل يعرف الكويت حق المعرفة، فقال: إن الكويت ستثور بعد عشر سنوات. ويمكن أن تبدو المدة قصيرة، ولكن القضية الأساسية، والأكثر أهمية، هي معرفة ضد من ستقوم تلك «الثورة».

إن الكويتيين المشغولين بالأعمال وجمع المال، لا يعيرون كبير اهتمام لمغريات القومية العربية. وإن أصحاب رؤوس الأموال من الكويتيين، الذين يستثمرون أموالهم في البلاد العربية الأخرى، اتخذوا مبدأ الألمان شعاراً لهم:

«الأعمال قبل السياسة!» ولكن العمال، والمثقفين، وصغار البرجوازيين، كانوا منذ زمن أكثر استجابة [٢٢٩] للدعوة إلى معاداة البريطانيين، تلك الدعوة التي يروج لها أحمد سعيد على موجات راديو صوت العرب من القاهرة. إن رابط التبعية الذي

يربط الكويت ببريطانيا شبيه بالروابط المماثلة في الخليج العربي؛ وهو أيضاً سبب لإشعال الروح الوطنية، وحجة يتمسك بها دعاة القومية العربية. وقد كان للعدوان على بورسعيد، ولأحداث أخرى، آثار مقلقة في الكويت. تمثلت في تخريب بعض المنشآت البترولية. ويفضل أمير الكويت أن يظل مستقلاً عن العراق والمملكة العربية السعودية، والبلاد العربية الأخرى. وهو اليوم كما كان بالأمس، في أمس الحاجة للحماية البريطانية. ولكن هذه الحماية تحمل بذور ضعفها فيها.

## الحماية البريطانية

أنشأت جماعة العتوب مدينة الكويت في القرن الثامن عشر، وقد جاءت تلك القبيلة من داخل الجزيرة العربية، يشدها إلى المكان الموقع الرائع لجون الكويت. وفي عام ١٧٩٣م، فتح التجار البريطانيون فيها وكالة تجارية، وفي عام ١٨٢١، أقام في جزيرة فيلكا، قبالة الساحل مقيم سياسي بريطاني. ثم وقعت الكويت تحت سلطة الباب العالي في عام ١٨٢٩م، واعترفت بها السلطات العثمانية إمارة مستقلة في عام ١٨٨٠م، وفي عام ١٩١٤م اعترفت لها بريطانيا بمثل ذلك أيضاً. وتحكم الكويت منذ عام ١٧٥٦م أسرة آل الصباح، ذات الأصول النجدية.

وعلى الرغم من النفوذ البريطاني الكبير في نهاية القرن التاسع عشر، حاولت تركيا احتلال الكويت عام ١٨٩٨م، وعقد الشيخ اتفاقية ٢٣ يناير «كانون الثاني» ١٨٩٩م، مع بريطانيا، خوفاً من المطامع العثمانية، وهي اتفاقية تشبه الاتفاقية التي وقعت مع البحرين عام ١٨٩٢م. وتفرض هذه الاتفاقية على الموقعين عليها الالتزامات نفسها، التي تفرضها الاتفاقات الموقعة مع إمارات الخليج الأخرى: إذ تعهدت الكويت بموجبها بعدم إقامة علاقات مع قوة أجنبية أخرى، وعدم التصرف بأي طريقة كانت بأي قسم من أراضيها، دون موافقة الحكومة البريطانية، مقابل أن

تقوم بريطانيا بحمايتها دون مقابل. وفي عام ١٩٠٤م، عينت بريطانيا أول مندوب سياسي لها في الكويت. ناهيك عن أن الشيخ تعهد في رسالتين متتاليتين في عامي ١٩١١ و ١٩١٢م بعدم منح [٢٣٠] أي امتيازات بترولية أولؤلؤية، إلا بموافقة الحكومة البريطانية. وقد تحدد موقف بريطانيا من الكويت في مذكرة صدرت في ٣ نوفمبر «تشرين الثاني» ١٩١٤م، وعدت الحكومة البريطانية فيها بدعم الشيخ، واعترفت باستقلال الإمارة في ظل الحماية البريطانية.

والحق أن الكويت استطاعت بفضل هذه الحماية، أن تظل مستقلة، على الرغم من غارات السعودية والعراق، وما مارستا من ضغوط في أعوام ١٩١٩م و ١٩٢٢م و ١٩٢٩م. لقد رُسِّمت حدودها بفضل جهود المفاوضين البريطانيين في العقير، بين ديسمبر «كانون الأول» ١٩٢٢م و يناير «كانون الثاني» ١٩٢٣م. لقد كان حينئذ الملك عبد العزيز آل سعود ما يزال مرتبطاً باتفاقية ١٩١٥م، وكان نفوذ بريطانيا في المملكة في عنفوانه بسبب وجود فيليبي؛ وكان العراق والأردن تحت الانتداب البريطاني، والسلطة فيهما ليست في أيدي الحكام العرب. وكان الإدارة المدنية الهندية، ووزارة الخارجية البريطانية، تتنافسان منافسة حامية الوطيس لحماية مصالحها. وظلت الكويت، المبتهجة بالخدمات البريطانية، محتفظة باستقلالها الداخلي التام، أما الشؤون الخارجية والدفاع فقد كانت مهمة قوة الحماية.

## الكويت واقتصاد المملكة المتحدة

خلف الشيخ عبد الله السالم الصباح، الحاكم الحالي للكويت، في عام ١٩٥٠م، ابن عمه أحمد الجابر الصباح. وفي عام ١٩٥٤م، وبعد عودته من أوروبا، إذ زار لندن، وباريس، وروما، كاد الشيخ عبد الله أن يذهب ضحية انقلاب سياسي، كان وراءه عبد الله المبارك، أحد أقربائه، وقائد قوات الأمن. ولما كان المبارك يطالب بالإسراع في الإصلاحات، فقد قرر الاستيلاء على الحكم؛ ولكن

الأمير، وعد بتحديث البلد دون تأخير، فجرت مصالحة عامة، وعادت المياه إلى مجاريها. وكانت النتيجة الرئيسية لهذه الأحداث ازدياد نفوذ عبد الله المبارك في الإمارة. لأن الشيخ، على الرغم من نظامه، ذي النمط الفرد، يستعين في الحكم بمجلس استشاري، يساعده في الحكم، وهذا المجلس مؤلف من بعض أفراد الأسرة الحاكمة، الذين يتقلدون في الوقت نفسه مناصب وزارية. ويبدو أن الكلمة العليا في هذه الحكومة التي هي أرستوقراطية [٢٣١] أكثر منها ملكية، هي لقائد قوات الأمن.

إن الكويت نظرياً هي ملكية دستورية، وقد أنشأ الشيخ في يونيو «حزيران» ١٩٣٨م مجلساً تشريعياً استشارياً. ولما أعلن قسم من أعضائه ميلهم إلى الاتحاد مع العراق، وتمكنوا من السيطرة على المجلس، سارع الأمير إلى حله. وجرت محاولة أخرى في عام ١٩٣٩م، وانتهت إلى النتائج نفسها. انحل المجلس، وزُجَّ بزعماء المحاولة في السجن، وانفجرت في أنحاء البلاد اضطرابات عنيفة دامية. حينئذ سن الشيخ دستوراً، يقضي بتشكيل مجلس تشريعي جديد، من عشرين عضواً، ينتخب نصفهم، والنصف الآخر يُعيَّن تعيناً. ولكن هذا الدستور لم يُنفذ أبداً.

لقد كان في الإمارة تيار قوي، يدعو إلى الانضمام إلى العراق، أعضاؤه من الطلاب الذين تلقوا علومهم في العراق. ويعارضون حكم الأمير الفردي معارضة شديدة، وكانت تُدير هذه المعارضة من الأراضي العراقية، الجمعية العربية في الخليج، التي تأسست في البصرة، في يناير «كانون الثاني» ١٩٣٩م. كانت مطالب المعارضة تنصب في معظمها على الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية، وكان من مصلحة الكويت الفقيرة حينئذٍ، أن تتحد مع العراق.

وعشية الحرب العالمية الثانية، كانت الإمارة منقسمة بين أنصار الشيخ، الحريصين على استقلال بلادهم، وأنصار المعارضة المطالبين بالانضمام إلى العراق<sup>(١)</sup>.

(١) في الأصل Anschluss أنشلوس، وتعني إلحاق بلد بأخر على غرار ضم النمسا إلى ألمانيا عام ١٩٣٨م (الترجم).

إلا أن اكتشاف البترول، جعل الكويت بلد الأساطير والثروات، وأصبح الطلاب الشباب رجال أعمال متقدمين في السن، في بلد منظم، أصبح نموذجاً للازدهار المذهل. وليس هناك ما يشير إلى أن هذا التقدم الشامل، ورغد العيش، والغنى، سيُجنب الإمارة الرائعة قيام ثورة عنيفة. إن المشكلات السياسية في الوقت الحاضر، ليست هي المشكلات الجوهرية؛ ولكنها قد تصبح بسرعة كذلك، وإن أحد العوامل الرئيسية في ذلك، هو تنامي العداء لبريطانيا في لعالم العربي. [٢٣٢]

إن قضية المحافظة على النفوذ في الكويت هي، نسبياً، إحدى أهم القضايا في سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط.

تزود الإمارة الصغيرة بريطانيا بنصف حاجتها من البترول. وتدفع بريطانيا للكويت ثمن هذا السائل الضروري بالجنه الإسترليني، مما يوفر على المالية البريطانية مبالغ طائلة من القطع النادر. ناهيك عن أن الكويت تمتلك في بريطانيا مبالغ كبيرة من الاحتياط المالي؛ وأرباحها تتحول إلى أسهم تُثمر في سوق لندن المالية، وليس من أحد في لندن يجهل أن مجلس الاستثمار الكويتي هو أكبر مشتر فردي. وإن المشاريع الضخمة، التي تُنفذ في الإمارة، تنفذها شركات عديدة، وتحصل الشركات البريطانية على حصة الأسد من تلك المشاريع.

إن الحكومة البريطانية تمتلك عن طريق حصص وزارة البحرية فيها على أكثرية الحصص في شركة بريتيش بتروليوم، التي تقسم ملكية شركة الكويت أويل (بصوت واحد مرجح). وعلى الرغم من أن مصالح شركة بريتيش بتروليوم موزعة في جميع أنحاء العالم، إلا أن أهم تلك المصالح متركزة في الكويت، وهي قضية غريبة، وغير مريحة، تضع أكبر شركة بريطانية خالصة، وواحداً من أكبر الاتحادات الاحتكارية العالمية تحت رحمة سياسة لا يمكن التكهن بتطوراتها.

ولذلك نرى القائمين على شركة بريتيش بتروليوم حذرين، وبالغني التأثر بالسياسة البريطانية في الخليج العربي، لأن الامتيازات البترولية الأخرى تمتلكها شركة

العراق بتروليوم، التي تمتلك شركة بريتيش بتروليوم ٢٣,٧٥٪ منها. وفي عام ١٩٥٦م، بلغ إنتاج شركة بريتيش بتروليوم في العالم إلى ٤٩ مليون و ٥٠٠ ألف طن: أكثر من نصفها-٢٧ مليون طن- يأتي من الكويت.

إن الوجود البريطاني في الخليج العربي كله مهدد داخلياً وخارجياً، وعلى رؤوس الأشهاد، وبعاد النظر فيه. وأظنني برهنت على أن خروج بريطانيا نهائياً من هذه المنطقة أمر مستبعد تماماً. كلما تقدم الزمن، أصبح القائمون على السياسة البريطانية في هذه المنطقة من أنصار إجراء تعديل جذري في المبادئ التي تقوم عليها هذه السياسة. ولكن مناهضي النفوذ البريطاني، سواء كانوا مصريين [٢٣٣] أو سعوديين، أو سوفيتيين، أو أمريكيين، يجرون حسابات خاطئة، إن هم لم يأخذوا بعين الاعتبار في لعبتهم، أن بريطانيا مستعدة، كالنمر الجريح، للقتال بشراسة كبيرة كي تتمكن من إبقاء سيطرتها على بترول الخليج العربي. إن الخليج بالنسبة إلى بريطانيا هو كالجزائر بالنسبة إلى فرنسا، على المستوى الشعوري.

لقد تحدثت مع كثير من البريطانيين الأذكياء، المطلعين على شؤون بلادهم في الشرق الأوسط، واتضح لي أنهم يقاسمونني القناعة نفسها باستحالة الاستمرار في السياسة القديمة. إن حدود بريطانيا في الخليج العربية، بين الكويت ومسقط، ولم تكن هذه الحدود مهددة أبداً بهذه الخطورة كما هي عليه اليوم. وإذا استمرت في تطبيق الإجراءات التي صنعت قوتها في القرن التاسع عشر، فإنها تعرض نفوذها في المنطقة لخطر التلاشي أمام القوى الجديدة في المنطقة، التي لم تملك القدرة للسيطرة عليها.